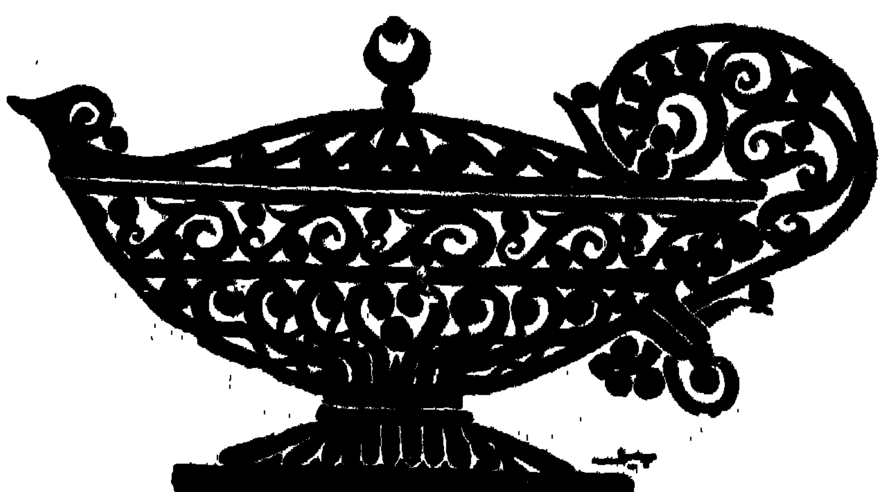
الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

أعداء البشر

للأستاذة الدكتورة
عائشة عبد الرحمن



الجمهورية العربية المتحدة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

أعداء البشر

للأستاذة الدكتورة
عائشة عبد الرحمن

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب
السادس والأربعون

الإهداء :

الى ابطالنا الفدائيين البواسل الأحـــرار ، الصامدين فى جبهة القتال ، رفضا لعار اسرائيل .. والباذلين حياتهم فدية لشرفنا وتاريخنا ، والمستبسلين فى حمل أمانة الجهاد المقدس ، ريثما يحتشد وطننا العـــربى وامتنا الاسلامية ، لخوض معركة الشرف والوجود والمصير ..

اهدى هذا الجهد الضئيل المتواضع ، تحية اجلال واكبار .

عائشة عبد الرحمن
« بنت الشاطىء »

مصر الجديدة ..
ربيع الاول : ١٣٨٨
يونية ، حزيران : ١٩٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

«سبّح للهِ ما فى السمواتِ وما فى الأرضِ وهو العزيزُ الحكيم * يـأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كبُر مقتًا عند اللهِ أن تقولوا ما لا تفعلون * إن اللهَ يُحبُّ الذين يُقاتلون فى سبيلهِ صَفًّا كأنهم بُنيانٌ مرصوص * وإذ قال موسى لقومِهِ يا قومِ لِمَ تؤذونني وقد تعلمونَ أنى رسولُ اللهِ إليكم فلما زاغوا أزاغ اللهُ قلوبَهم ، واللهُ لا يَهدِى القومَ الفاسقين * وإذ قال عيسى بنُ مريمَ يا بنى إسرائيلَ إنى رسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقا لما بينَ يدىَّ من التوراة ومبشرا برسولٍ يـأتى من بعدى اسمُه أحمدُ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مُبين * وَمَنْ أظلمُ ممن افترى على اللهِ الكذبَ وهو يُدعَى إلى الإسلام ، واللهُ لا يَهدى القومَ الظالمين * يُريدون ليُطفئوا نورَ اللهِ بـأفواهِهم واللهُ مُتمُّ نورِهِ ولو كَرِه الكافرون * هو الذى أرسل رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظهرَه على الدينِ كلِّه ولو كَرِه المشركون »

(صدق الله العظيم)

ذِكْرَىٰ... وَعِبْرَة

.فهل ينظرون إلَّا سُنَّةَ الأَولين ، فلن تجدَ لسنة

اللهِ تبديلا ولن تجدَ لسنةِ اللهِ تحويلا »

(قرآن كريم)

أقدم هذا الكتاب إلى المطبعة وقد مضى عام على مأساة يونيه ١٩٦٧ .

وأمتى الإسلامية تحيي ذكرى المولد النبوى المبارك ، فى مثل هذا الشهر من عام القمر ، منذ أربعة عشر قرنا ونحو نصف قرن . . .

أمن العجيب أن تأتى ذكرى المولد النبوى بكل يُمنها وجلالها وسناها .

فى هذا الموعد الأول للعدوان الصهيونى الخبيث على الوادى المقدس ، وأولى القبلتين ، ومزار البشرية المتدينة على اختلاف مِللها ورسُلها ومذاهبها؟

لقد يبدو هذا محض صدفة واتفاق !

لكن سنن الحياة لا تعترف بصدفة عشواء .

وكل ما يبدو لنا من قبيل الصدف ، ليس كذلك فى حساب السنن الكونية التى تسير وفق نظام مضطرد ونسَق محكم وقوانين حتمية :

«فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجدَ لسنةِ الله تبديلا ولن تجدَ لسنةِ اللهِ تحويلا » .

ونجهل أحيانا هذه السنن ، فنحمل على الأقدار ما يبدو نقضا لنواميس الكون ، ولا نعى آية الله فيها :

«لا الشمسُ ينبغى لها أن تدركَ القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهارِ وكلٌّ فى فلَكٍ يسبحون » .

* * *

كلا . . .

ليس الأمر فى موعد الذكرى هذا العام ، محض صدفة نكتفى بإحالتها على قدرٍ غيبى فنستريح !

بل الأمر فيه ، أن مجيء ذكرى المولد الأغر الميمون ، فى شهر يونيه الأول بعد العدوان الخبيث الملعون .

إيذان برفض النور للظلمة ، والحق للباطل ، والخير للشر . .

وإعلان جهير برفض الوجود الصهيونى على أرض الرسالات .

* * *

وقانون الحياة يأبى أن ينسخ الظلام النور ، وأن يمحق الحق الباطل ، وأن يغلب الشر الخير . . .

لأن هذا يعنى تشويه الحياة وتدميرها . .

فإما أن تنتصر الحياة بسحق الشر ، وإما أن تُسلِّم بوجوده وتؤمن بقاءه ، فيُسلِمها إلى دمار محتوم .

والوجود الصهيونى على أرض الرسالات ضد طبيعة الأشياء .

ومن ضلال الوهم أن نتصور إمكان تعايُش سلمى بيننا وبين أعداء البشر .

ساحة السراب وحدها ، هى التى تتسع لأمثال هذه الأوهام فى إمكان اجتماع الأضداد . . .

* * *

وهذا النور الساطع من سنى ذكرى المولد يكشف عن بشاعة الشر الذى امتُحنت به ديارنا المقدسة ، بقدر ما يضئ لنا طريق الخلاص :

ففى فجر ليلة كهذه من ربيع الأول ، قبل المبعث بأربعين عاما .

ولد هذا اليتيم الهاشمى المصطفى ، الذى قاد أكبر معركة حاسمة ، ضد الضلال والباطل والشر :

على مسيرة خطوات من مهد مولده فى أم القرى ، كانت الأوثان تملأ ساحة البيت العتيق ، تتحدى بسلطانها العتيد الموروث كل محاولة للقضاء عليها ، وتخنق بظلالها ‏المارده كل أمل فى تغيير الأوضاع .

ومع ذلك ، لم يكد هذا اليتيم الهاشمى يبلغ الأربعين من عمره ويتلو ما تلقى من كلمات ربه ، حتى ترنحت تلكم الأوثان وتعرت فى نور الفجر ، ممسوخة شوهاء بلهاء ، ثم تهاوت حطاما منبوذا تحت أقدام المصطفى والذين معه من حزب الله . . .

وفى «يثرب» عاصمة الشمال ، كانت عصابات يهود التى حطت كالذئاب المسعورة على أخصب منطقة من شمال الحجاز ، لا تكاد تحسب حسابا لهذا الوليد المكى الذى سوف يراه التاريخ بعد نصف قرن فحسب ، يخوض معركة طويلة مريرة ضد هذا الشر اليهودى الذى ضَرِىَ واستشرى ، ويحتمل عبء الجهاد لتطهير دار الهجرة وما حولها من ذلك الوباء الخبيث المدمر . . .

وغير بعيد من مهد المولد ، كان النسر الرومانى الهرم يجتر أمجاد ماضيه ويعربد فى أرض الله متسلطا بالإرهاب حين أعوزته القوة ، لا يلقى بالا إلى جزيرة العرب ببواديها المقفرة ورمالها الملتهبة وصخورها الجرداء ، ولا يعنيه أن يولد فى مكة طفل يتيم ، ابن امرأة من قريش تأكل القديد ...

حتى تلقى امبراطور الدولة الرومانية بعد نحو نصف قرن ، كتابا بسيطا من هذا العربى الأمى ، فترنح النسر الرومانى فى زهو وخيلاء ،

ثم لم يلبث أن سقط تحت أقدام الفاتحين من أتباع النبى العربى الذين خرجوا من الجزيرة ينشرون دعوة الحق ويحملون لواء الإسلام .

وإلى الشرق من شمال بلاد العرب ، كانت نار المجوسية تسطع فى معابد الفرس فتكشف عن الترف الباذخ للأكاسرة الذين غالبوا الروم واليونان ، ورنوا إلى مد سلطانهم على سواحل البحر الأحمر والأبيض ، وطمعوا فى أن يرثوا الأرض ومن عليها ، بالقهر والتسلط والطغيان . . حتى هبت أنفاس الإيمان من أرض المبعث ، فأطفأت تلك النار المعبودة ، وخرس فحيح لهبها فى هتاف المؤمنين من جند الإسلام :

الله أكبر . . .

* * *

الله أكبر . . .

شعار الإيمان الذى غلب عتوّ الوثنية الغاشمة . . .

وسلاح النصر الذى فل جبروت الطغاة ، وهزم الأباطرة والأكاسرة من روم ويونان وفرس . . .

وكلمة الحق التى طهرت أرض الرسالات من أعداء البشر . . .

وشعاع النور الذى بدأ به الفجر لعصر الإنسان . . .

* * *

واليوم ، يمضى على المولد أربعة عشر قرنا ونصف قرن من الزمان .

ويقف التاريخ ليستعيد ذكرى تلك الليلة الخالدة على الدهر . .

وتروى الدنيا قصة ذلك الوليد الهاشمى اليتيم الذى اصطفى خاتما للأنبياء ، وقاد أكبر معركة عرفتها الإنسانية ضد الكفر والباطل والشر . . .

ويشدو المنشدون بقصائد الشعراء من وحى الذكرى الغراء لمولد ذلك اليتيم الخالد . . .

* * *

وفى عامنا هذا ، تأتى ذكرى المولد الأغر ، ونحن فى حداد يونيه الأول بعد عام النكسة ،

إيذانا برفض الوجود الصهيونى على أرض الرسالات التى تمرح عليها القطعان من ذئابهم :

بوطأة قرصان ،

ووقاحة سفاح ،

وخيلاء مستعمر . . . .

تأتى الذكرى المباركة فى هذا الموعد المحدد ، لتحمى إيماننا وتقود جهادنا المقدس ضد أعداء البشر .

تحت اللواء الأغر الذى حمله ذلك الوليد اليتيم من يوم مبعثه ، فأتم رسالة المسيح وموسى عليهما السلام . .

ونسخ الظلام ومحق الباطل ، وردًّا إلى الإنسانية إيمانها بسحق الشر ، وإلى الحياة ثقتها فى ثبات السنن الكونية التى ترفض اجتماع الأضداد ، وتأبى مسالمة الشر وتأمين وجوده .

وكان انتصار نبينا المصطفى انتصارا للحياة وتأمينا لنضالها من أجل الحق والخير والجمال «إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب» .

* * *

الجزء الأول

الأبعاد التاريخية للمعركة

(١) فى الشرق القديم

(٢) فى بلاد الحجاز

(٣) فى الغرب الأوروبى

عَلَى امْتِدَادِ الزَّمَانِ وَالْمَكَان

«وضُرِبتْ عليهم الذلة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله ، ذلك بأَنهم كانوا يكفرون بآيات اللهِ ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون »

(قرآن كريم : سورة البقرة)

« . . . وفى جميع أرجاسِكِ وفواحشِك لم تذكرى أيامَ صباك . وإذا كنت لم تشبعى ، زنيتِ مع بنى آشور ولم تشبعى . فلذلك أقضى عليك بما يُقضَى على الفاسقات وسافكات الدماء » .

حزقيال : ١٦

على مدى عام طويل كالأبد ، لم يزايلنى فيه قط الإحساسُ الباهظ بوطأة الكابوس اللعين الجاثم على وجودنا .

لبثت أحدق فى مأساة النكسة وأصغى إلى وقع صداها الأليم ، لعلى أستوضح الرؤية من خلال الضباب الذى يغشى الأُفق ، وأستبين مكانى فى نضال أُمتى العربية وهى تواجه أعداء البشر . . .

وبمشقة بالغة تحاشيت الخلط بين مواقع الميدان العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية ، كى أتقى تشتت البصر وغشية الدوار ..

وإذ آخذ موضعى حيث ينبغى أن أكون فى الموقع الفكرى ، يلوح لى أن هناك أخطاء جسيمة تشوب فهمنا للعنة إسرائيل فنضل ضلالا بعيدا ...

من هذه الأخطاء ، أننا ننساق من حيث لا ندرى وراء الدعاية الصهيونية الخبيثة التى حددت لعالم اليوم الزاويةَ التى ينظر منها إلى قصة الصراع الطويل بين الإنسانية وبين العصابات اليهودية ، فوقفت بها عند الجولة النازية وبترت بقية فصول القصة بأبعادها المترامية على امتداد الزمان والمكان .

وليس العجيب أن الصهيونية نجحت فى أن تفرض هذا الفهم المحدود على السياسة الدولية للغرب المعاصر ،

ولا من العجيب كذلك أن تسلطت به على الدولة الألمانية الحديثة فرسّخت فى هذا الجيل من أبنائها عقدة الوحشية الهتلرية ،

ولكن العجيب حقا ، أنها استطاعت أن تمد سيطرتها على المجال الفكرى، للأُمة العربية الممتحَنة بالطاعون الصهيونى فى صميم وطنها :

فما أكثر ما يتناول كتاب منا مأساة الفظائع اليهودية فى أرضنا المغتصبة ، فلا يجدون ما يجسمون به بشاعتها سوى ربطها بفظائع النازية ومقارنتها بها !

وما أكثر ما نسمع متحدثين ومحاضرين وخطباء ، فى الإذاعات العربية والندوات الإسلامية والمحافل الدولية ، يتكلمون عن وحشية الاحتلال الإسرائيلى ، فلا يفوتهم الحرص على التذكير بما تلقى اليهود (المساكين) فى عهد هتلر ، من دروس التعذيب وأساليب التنكيل والإبادة !

وربما تطوع بعض المولعين بالتحليل النفسى ففسّر ما يمارسه يهود من جرائم فى ديارنا المبتلاة بهم ، بأنه تنفيس لشحنة الحقد التى جاءوا بها من المعتقلات النازية !

دون أن ندرى أن هذا التركيز على الاضطهاد الهتلرى وانحصار الرؤية فيه ، متأثر بتوجيه الدعاية الصهيونية الخبيثة التى لا تريد لعالم اليوم أن يذكر جولات الصراع بين الإنسانية وأعداء البشر :

فى معركة تاريخية تباعدت أزمانها من عصور الفراعنة والبابليين إلى العصر الحديث ،

وامتدت مواقعها من وديان الرافدين والأردن والنيل وجزيرة العرب ، إلى الساحة الأوروبية من روسيا فى أقصى الشمال الشرقى ، إلى اسبانيا فى طرف الجنوب الغربى .....

(١)

فى الشرق القديم

«لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داودَ وعيسى بنِ مريمَ ، ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهَون عن منكرٍ فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » .

(قرآن كريم : سورة المائدة)

«.. وبقى بنو إسرائيل ، حتى فى عهد ملوكهم ، بدويين أفاقين مغيرين سفاكين ... خالين من الفكر كأنعامهم التى يحرسونها » .

جوستاف لوبون

«اليهود فى تاريخ الحضارات الأُولى»

قبل مولد «موسى عليه السلام» بقرون ، فى زمن «يوسف بن يعقوب» كانت قلة منهم قد طرأت على مصر تستجدى القوت ، ثم ما لبثت أن تكاثرت على مر أجيال كأنها الجراد ، وأنشبت مخالبها فى الأرض الطيبة ، لم تشكر لله سبحانه ما أتاح لها من خيرات مصر ونعمها .

وفى غضب كافر ، نسى فرعون حدود بشريته فوطئهم بجبروته العاتى وطأة ساحقة لم يفلت منها الولدان . ثم لما نجاهم الله تعالى من نقمة فرعون وعبر بهم «موسى» عليه السلام البحر وذهب لميقات ربه تاركا فيهم أخاه «هرون» أشار عليهم يهودى من السامرة أن يتخذوا من الحلى الذهبية التى سرقوها من أهل مصر ، عجلا معبودا . فلم يملكوا أن يقاوموا تلك الفتنة وخروا للعجل ساجدين .

وفى هذا الفصل من قصتهم ، قال تعالى فى سورة «طه» :

«وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثرى وعجِلتُ إليك ربِّ لترضى * قال فإنا قد فتنَّا قومَك من بعدك وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبانَ أَسِفا قال يا قوم ألم يعدْكم ربكم وعدا حسنا ، أفطال عليكم العهدُ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى * قالوا ما أخلَفنا موعدك بِملْكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى

فنسى * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنِ ، أفعصيت أمرى * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى » .

وأُشرب القوم فى قلوبهم حبَّ العجل الذهبى المعبود ، فتطاولوا على موسى ورب موسى :

« وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون » .

ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وأمعنوا فى أرض كنعان فسادا وشرا حتى صارت بهم أشبه ببؤرة تفرخ الوباء وتسمم الهواء إلى أن دهمتهم جيوش « سرجون : ملك بابل » فى القرن الثامن قبل الميلاد ، لتقطع دابرهم : طاردتهم وأجلت بنى إسرائيل الشماليين من « السامرة » إلى ما وراء الفرات ، فى القرن الثامن قبل الميلاد وانكمشت بقيتهم «يهوذا» فى أرض فلسطين التى احتلتها ، والدول من حولها ترصد المناخ المشبع بسمومها ، فتكر عليها من شرق وغرب ، لتطهر المنطقة منها .

من الشرق ، غزا الأشوريون «يهوذا» فى القرن السابع قبل الميلاد ، فأسروا زعيمها « منسى » سنة ٦١٠ ق . م ، وساق « بختنصر » ملك

ـل ، عشرة آلاف أسير من يهوذا عام ٥٩٩ ق . م ، ثم أعاد « بختنصر » كرة عليهم عام ٥٨٦ ق.م حيث خرّب ديارهم وساق بقاياهم إلى الأسر ـابلى فلبثوا فيه نحو نصف قرن ، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ـاءوا بغضب من الله (١) .

ومن غرب فلسطين ، اجتاح « نخو : فرعون مصر » عصابة يهوذا ، ـهرها وقتل زعيمها « يوشيا » ثم ترك الأمانة من بعده لملك بابل .

وحين سقطت الدولة الأشورية ، وخلفها الفرس ، أفلت اليهود من أسر البابلى فى عهد « كورش » سنة ٣٣٨ق.م حتى إذا جاء الإسكندر مدونى غازيا منتصرا ، تسلل اليهود عائدين إلى أرض فلسطين ، حيث ضعوا لخليفته « بطليموس » الذى اضطر ، حماية لدولته ، إلى تدمير صونهم وهيكلهم ، وإرسال مائة ألف أسير منهم إلى مصر سنة ٣٢٠ ق.م

والذين بقوا منهم فى فلسطين ، خضعوا لحكم السلوقيين سنة ١٦٨ ق . م يث أنكرهم الملك « أنطوخيوس » واستبشع شرهم ، فحصد منهم ثمانين ـفا ، قتلهم فى ثلاثة أيام لا تزيد !

* * *

وتركت الصدمة الساحقة ، أشلاء من بقاياهم فى فلسطين ، لم تلبث ـ استردت أنفاسها وأفرخت جراثيمها حين احتدم الصراع بين السلوقيين البطالسة ، فخلا الميدان ليظهر جيل من اليهود ، يدعون المكابيين ،

---

(١) ولفنسون (أبو ذؤيب) : تاريخ اللغات الســـامية ، ص ٨٩ نشر لجنة التأليف الترجمة بالقاهرة ، ١٩٢٩ .

حكموا أورشليم إلى أن احتلها «بومبى» امبراطور الرومان سنة ٦٣ ق.م ، فركعوا تحت قدميه أذلة منكسرين ؛ ومخالبهم تنبش خفية فى الأرض لتبذر الشر . .

وفى عهد «يوليوس قيصر» بعثت روما سنة ٣٧ ق.م ، «هيرودس» حاكما على القدس ، وفى عهده وُلد السيد المسيح فى بيت لحم . وتعاقب ولاة الرومان ، وبذور الشر تنضج وتنضح بالخبث ، فما جاء الوالى «بيلاتوس» حتى استقام عود الشر صليبا ، للسيد المسيح !

وضرى شر اليهود بعد الجريمة الشنعاء ، إلى أن جاء القائد الرومانى «تيطس» سنة ٧٠ م حاكما على القدس ، فما هدأ له بال حتى دمر هيكل اليهود وذبح منهم من ذبح ، وأسر من أسر !

وأتم «سيفروس» قهر اليهود وعقابهم ، فى مذبحة سنة ١٣٥ م ، وتشرد الذين نجوا من المذبحة ، فى أنحاء الأرض ، وهى تلفظهم حيثما حلوا وأنى أقاموا(١) .

ورصيد جرائمهم الوحشية يتضخم مع الأجيال ، وطبيعة «اليهودى التائه» تتأصل فى سلالتهم فلا تدعهم يستقرون فى بلد إلا على نية امتصاص دمائه وخيراته ، عن يقين بأن الزمن مهما يطل بهم فى أى أرض فلن تلبث أن تضج منهم وتنكر شرهم وتطاردهم بلعنتها إلى ما وراء حدودها .

* * *

---

(١) اقرأ فى هذا : تاريخ الاسرائيليين : شاهين مقاريوس ط المقتطف ١٩٠٤ ـ تاريخ القدس ـ عارف المعارف ـ ط المعارف ١٩٥١ .

واقرأ معهما : خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية : عبد الله التل ، ط دار القلم بالقاهرة ١٩٦٤ .

تلك كانت بعض جولات المعركة الإنسانية ضد أعداء البشر ، على أرضنا .

امتدت زمانا من عصر الفراعنة والأشوريين إلى عصر الأمبراطور الرومانى « أدريانوس » الذى دمر أورشليم وأنشأ مكانها مدينة جديدة سماها « إيليا » تطهيرا للمنطقة من رجسهم .

وامتدت مكانا ، من بابل فى قلب آسيا ، إلى وادى النيل فى الشمال الإفريقى .

وحتى ذلك الحين ، لم تكن أرض الجزيرة العربية قد اتصلت بميدان المعركة أو شاركت فيها .

فأى ريح خبيثة قذفت بعصابتهم إلى الجزيرة العربية لتمتص خيرها ودماءها ، وتقيم لها هناك مستعمراتٍ غنية محصّنة ، من قبل أن يبزغ نور الإسلام فيدك حصون الشر ، ويطهر أرض المبعث من أنفاسهم السامة ؟

لذلك حديث طويل .....

(٢)

فِي بِلَادِ الْحِجَازِ

* في العصر الجاهلي
* في عصر المبعث
* الجلاء . . . .

في العصر الجاهلي

مضت قرون وأدهار ، والجزيرة العربية بمعزل عن تلك المعركة التى امتدت من وادى النيل إلى وادى الرافدين .

وكان السؤال الذى وقفت عنده فى الفصل السابق : أى ريح خبيثة قذفت بالعصابات اليهودية إلى الجزيرة العربية لتمتص دماءها وتغتال خيراتها ، وتقيم لها هناك معاقل وحصونا قبل أن يبزغ نور الإسلام فيدكها دكا ؟

يزعم بعض المستشرقين منهم ، «أن حرم مكة قد عمر قديما ببطون من بنى شمعون ، وأن مهنة التجارة وما يتصل بها من دهاء وذكاء ونشاط ، قد جاءت إلى أهل مكة من اليهود ، فكان المكيون واليهود كأنهم قُدوا من أديم واحد ونبتوا من نبعة واحدة»[1] .

وادعى «دوزى» أن مكة وعمرانها الوثنى وتقدم قبائلها فى الجاهلية على غيرهم من قبائل العرب ، إنما جاء إليها من بطون شمعونية إسرائيلية[2] :

ويقول «ولفنسون» إن اليهود كانت لهم فى الجاهلية البعيدة بطون مستقرة فى جزيرة العرب وهو يقسم وجودهم هناك إلى طورين : الأول لتلك البطون القديمة ، والثانى يبدأ بنهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، وينتهى بجلاء اليهود عن جزيرة العرب فى عهد عمر بن الخطاب[3] .

---

(١) Margobith : Relations between Arabs & Israelites: 10,27

(٢) Dozy. Dir Israelitenzu Mekka P. 40,98

(٣) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب — نشرته لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة : ط الاعتماد ١٩٢٧ .

وتسأله عن تلك البطون القديمة التى صمت التاريخ عنها ، فيلوذ بدعوى أنها «بطون بائدة» ويدعى حينا أن اليهود أغفلوا تدوين تاريخهم «لأنهم فقدوا صفاتهم المدنية باستيطانهم بلاد العرب الصحراوية البعيدة عن كل حركة عمرانية .. وضعفت فيهم تلك الوراثة الروحانية التى حملوها معهم إلى كل بلد نزحوا إليه . وأخذوا ينزلون من أوج المدنية والحضارة شيئا فشيئا حتى وقعوا فى هوة الهمجية وصاروا مثل غيرهم من سكان تلك الجزيرة المنعزلين عن جميع العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة . وإن أمة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائحها لتورثها لخلفها ، لآيلة حتما إلى أحط أنواع الهمجية مهما كانت درجتها فى الحضارة والعمران . . فلم يظهر شىء من النبوغ والعبقرية فى يهود بلاد العرب مطلقا . ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة فى كل عصورها بالرقى الفكرى ، وإن كان اليهود بوجه عام أقرب إلى المدنية من بقية العرب . . ولكن يظهر أن البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية فتغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم و نفسياتهم»(١) .

ثم كأنه كره أن يصم قومه بالهمجية ، وينزلهم من أوج المدنية والحضارة إلى هوة الهمجية مع غيرهم من سكان تلك الجزيرة ، فاستدرك يقول مبررا صمت التاريخ عن قديم لليهود فى بلاد العرب :

«على أن هذا لم ينف احتمال وجود كتب فى التاريخ والدين دونها اليهود فى بلاد الحجاز ، ولكنها ضاعت فى الحروب التى حدثت بين اليهود والمسلمين فى المدينة» !!(٢)

(١ ، ٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب .
ولاحظ أن ولفنسون يطلق على اهل هذه البلاد وأصحابها ، سكان الجزيرة العربية .

كذا ؟ أى صفات مدنية كانت لليهود وزالت عنهم باستيطانهم بلاد العرب ؟

وأى وراثة روحانية حملوها معهم إلى كل بلد نزلوا فيه ، ثم ضعفت فيهم بتأثير سكان تلك الجزيرة !!

وأى «نبوغ وعبقرية» زايلتهم فى تلك البيئة العربية التى شلت قواهم الروحانية ؟

وما هذا القدر الذى بقى لهم ، فجعلهم بوجه عام أرقى وأقرب إلى المدنية من بقية العرب الذين غلبوا على اليهود بعقليتهم البدوية ؟

وما الذى حملوه معهم من الوراثة الروحانية إلى كل بلد نزحوا إليه ؟

أدع الجواب عن هذا كله إلى العالم الفرنسى المؤرخ «جوستاف لوبون» فيقول :

« وبقى بنو إسرائيل حتى فى عهد ملوكهم ، بدويين أفاقين مغيرين سفاكين مولعين بقطعانهم مندفعين فى الخصام الوحشى ، فإذا ما بلغ الجهد منهم ركنوا إلى خيال رخيص ، تائهة أبصارهم فى الفضاء ، كسالى ، خالين من الفكر كأنعامهم التى يحرسونها . .

«وإذا أريد تلخيص مزاج اليهود النفسى فى بضع كلمات كما يستنبط من أسفارهم ، وُجد أنه ظل على الدوام قريبا جدا من حال أشد الشعوب بدائية ، فقد كان اليهود ـ دائما ـ عُندا مندفعين غُفُلا سُذَّجا جُفاة كالوحوش والأطفال ، وكانوا مع ذلك عاطلين فى كل وقت من الفتون الذى يتجلى فيه سحر صِبا الناس والشعوب»(1) .

(1) اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى : ص ٥٨ ، الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر : ط حجازى بالقاهرة ١٩٥٠ .

فإن كان العلامة «جوستاف لوبون» متهما عند ولفنسون ، فليسمع شهادة شاهد غير متهم ، قالها « حزقيال » وهو يلعن تلك الفئة العاقة المدنسة ، باسم يهوَد :

« .. وفى جميع أرجاسك وفواحشك لم تذكرى أيام صباك . وإذا كنت لم تشبعى زنيت مع بنى أشور ولم تشبعى . .

« فلذلك أقضى عليك بما يُقضى على الفاسقات وسافكات الدماء ، وأجعلك قتيل حنق وغيرة » - حزقيال : ١٦ .

* * *

وأما عن وجود يهودى قديم فى الجزيرة العربية ، فلا نقبل منه مايرفضه التاريخ من دعاوى « دوزى ، ومرجليوث » المرسَلة ، ويرفض معه أوهام « إسرائيل ولفنسون » عن صفات مدنية وأوج حضارى كان لليهود ، قبل أن ينزحوا على جزيرة العرب كالوباء .

فلندع تلك البطون البائدة ، ولنبدأ بالمعروف من تاريخهم فى الجزيرة ، من نهاية القرن الخامس قبل الميلاد . وهذا التحديد الزمنى يربط وجودهم فى أرض العرب ، بالأسْر البابلى الذى استغرق نصف القرن ، من سنة ٥٨٨ : ٥٣٦ ق . م .

وإذن فقد تسللت شراذم من عصابتهم بعد إفلاتها فى عهد الفرس من الأسر ، واتجهت إلى الجزيرة العربية . ويروى «الطبرى» أن نزول بنى إسرائيل بالحجاز ، بدأ حين وطئ «بختنصر» بلاد الشام وخرب ديارهم [١] . وحكى «ياقوت» قصة خوفهم من ملك الروم - لم يُسمِّه -

---

(١) تاريخ الطبرى : الجزء الأول ، ويحدد « ولفنسون » تاريخ تدمير فلسطين على يد بختنصر ، بعام ٥٨٦ ق.م ، انظر (تاريخ اللغات السامية) ص ٨٩ .

فأولموا وليمة وسألوه أن يشرفهم بالزيارة ، فأتاهم ففتكوا به وبمن معه غيلة وغدرا ولحقوا بأرض الحجاز .

وفى رواية ـ نقلها «السمهودى» ـ خلاصتها أن العماليق كانت تغير من الحجاز على اليهود جنوبى أرض كنعان ، فائتمروا بالعماليق حتى انتهت عصابة منهم إلى «الأرقم بن الأرقم» ملك العماليق فقتلته . ثم تسلطوا على الناس فذبحوا كل الذكور لم يستبقوا منهم إلا شابا واحدا عادوا به إلى قومهم . فأنكرت اليهود على جنودها استبقاء هذا الشاب ، وعدّوا استبقاءه جريمة ومعصية ، وقالوا للجنود «لا والله لا تدخلون علينا أبدا . فرجع المطرودون إلى بلاد الحجاز ، وكان الحجاز إذ ذاك أشجر بلاد الله وأطهره ماء»[1] .

* * *

هكذا بدأ وجودهم فى الحجاز بشراذم قليلة ، لعلها لم تأخذ شكل هجرة جماعية إلا فى القرن الأول الميلادى ، عندما اشتدت عليهم وطأة الرومان فلجئوا إلى الجزيرة العربية :

ويعلل ولفنسون ـ اختيارهم هذه البلاد مهاجَرا لهم بأنه كان «نظرا لأنظمتها البدوية الحرة ، ووجودها فى أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها»[2] .

وهنا يعرض سؤال :

لماذا لم يوغل اليهود فى مجاهل نجد ومسارب الدهناء وأطراف اليمن ، ليكونوا أبعد منالا من مطاردة الرومان ؟

---

(١) وفاء الوفا : ١/١٥٩ .

(٢) تاريخ اليهود : ص ٩ .

قد يُظن أنهم أشفقوا من بعد الرحلة ومشاق الطريق ، وتهيبوا أن يوغلوا فى التيه مرة أُخرى ، بعد الذى ذاقوه من أهوال التيه الأول ، الذى خبطوا فيه ضالين ، أربعين عاما . .

لكن لعنة الزمن ، قد راضتهم على مثل ذلك وأشق منه ، وإنما تحاشوا المناطق الصحراوية ـ التى ألقى «ولفنسون» عليها تبعة همجيتهم ـ وحطوا عيونهم على المنطقة الخصبة شمالى الحجاز ، حول يثرب ، عاصمة الشمال .

والحق أن يثرب لم تنفرد بالخصب المهيئ للاستعمار والأمن ؛ فقد كانت هناك على مقربة منها بالحجاز ، مدينة «الطائف» ببساتينها الخضر ، و«مكة» أم القرى ، كبرى المراكز الحضرية فى الجزيرة ؛ وعاصمتها التجارية الأُولى .

وغير بعيد من يثرب ، إلى الشمال ، كانت إمارتا الغساسنة والمناذرة العربيتان ، قد استقرتا فى الشام والحيرة ، وتأثرتا بحضارتى الروم والفرس .

وفى الجنوب على ساحل الجزيرة مما يلى البحر الأحمر ، قامت «نجران» عامرة بالكنائس ، وفيها طائفة من النصارى يؤمنون برب عيسى وموسى ، كما كانت هناك بلاد اليمن ، بمأمن من الرومان ، وفيها بقايا خصب ومراكز للتجارة ، وقد زعم «مرجليوث» أن الوطن الأصلى لليهود كان ببلاد اليمن (١) .

لكن اليهود الطارئين على بلاد العرب ، غضوا أبصارهم عن تلك المناطق الحضرية العامرة ، فتحاشوا الحيرة وغسان ، فرارا من وطأة

(١) Margolioth : Relations between Arabs & Israelite. P.P. 10,27

الرومان ، وتحاشوا نجران ، لأن النصارى لم يكونوا قد نسوا بعد ، ماصنع اليهود بالمسيح عليه السلام . وتحاشوا اليمن ، لأنها كانت ميدان صراع بين الفرس والحبشة ، وتهيبوا الطائف لقربها من مكة .

ومكة العاصمة الدينية للعرب من قديم الحقب والأدهار ، فليس لليهود إلى حرمها سبيل ولا لهم على أرضها مكان . .

ولم يكن خصب يثرب وحده هو الذى أغراهم بها ، وإنما دخل فى حسابهم أنها مركز تجارى فذ ، بحكم موقعها فى طريق القوافل التجارية لقريش ، فى رحلتها السنوية من مكة إلى الشام .

ثم إن عرب يثرب ، كانوا فى الجاهلية ــ منذ طرأ عليهم أول فوج يهودى ــ قد مزقتهم العصبية بين «الأوس والخزرج» فبعضهم لبعض عدو . مما يتيح للعصابات اليهودية الجديدة أن تجد هناك مرتعا خصبا للدس والفتنة ، لتظل نار العصبية تأكل الحيين من أوس وخزرج ، ويفرغ اليهود لاستثمار نشاطهم فى جمع المال ، معبودهم الواحد الذى لا شريك له . . .

* * *

ومن يثرب ، بعثوا رائدا لهم يفحص المناطق المجاورة ويختار أصلحها للاحتلال والاستعمار ، فخرج حتى أتى العالية ، حيث بطحان ومهزور ، وواديان من حَرة على تلاع أرض عذبة بها مياه حلوة تنبت حُرَّ الشجر ، فرجع إلى قومه اليهود ، يبشرهم بأنه وجد لهم بلدا طيبا نزها ، على تلاع عذبة ، فتحولت إليها طوائف منهم : نزل بنو النضير على مهزور واحتلوا تلاعه وما حولها من بعاث وسموات ، ونزلت عصابة على قريظة فسرفوا ببنى قريظة ، واحتل آخرون خيبر ، وتيماء ، ووادى القرى . . .

وبقيت منهم طائفة فى قلب يثرب . أشهرهم «بنو قينقاع» .

وهكذا انتشرت عصاباتهم فى المنطقة وما حولها ، فما مضى زمن حتى تسلطوا على مرافق الحياة وأثروا ثراء فاحشا . وانتشروا فى شمال الحجاز يمتصون كل خير فيه ، فكانت لهم «قرى كثيرة فى أرض خيبر الواقعة شمال يثرب ، آهلة بأكثرية مطلقة من اليهود ، ثم هناك وادى القرى المشهور بأرضه الخصبة وحدائقه الزاهرة ، كان أيضا من المستعمرات اليهودية . ووجد اليهود أيضا بكثرة فى أرض تيماء»(١) .

وحفروا الآبار فى الأراضى العالية ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الماشية ، وسيطروا على مرفق التجارة ، وتخصص بنو قينقاع فى الصياغة ، واشتغل النساء اليهوديات بنسج الأقمشة (٢) .

على أن تجارتهم الكبرى ، كانت «الربا» ! وأترك لإسرائيل ولفنسون أن يقول كلمته فى مهنة قومه ، الذين «نزلوا على البلاد ضيوفا مضطرين ، فارين من مخالب النسر الرومانى» لينشبوا مخالبهم السامة فى مستعمراتهم الجديدة . . .

«ونظرا لما كان عندهم من مال وثروة ، فقد كان كثير من الأعراب يرهنون عندهم بعض الأمتعة ليستدينوا منهم ما يحتاجون إليه . . . وكان أخذ الربا شائعا عندهم» .

وقد استطرد يعتذر لهم ، بأن التعامل بالربا لم يكن خاصا بهم ، وقد كانوا لا يرون فيه شيئا معيبا مطلقا بل يعتبرونه نوعا من البيع (٣) .

* * *

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ٦٠ .
(٣) تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ١٨ .

فهل استقرت بهم الحياة مع كل هذا الثراء والقوة ، وأمِنوا أن تطاردهم اللعنة فتلفظهم الأرض فى مستعمراتهم الجديدة ، كما لفظتهم كل أرض من قبل ؟

يزعم «ولفنسون» أنه قد كان هناك بينهم وبين «سكان البلاد التى استعمروها ، تعاون اقتصادى واختلاط اجتماعى» (1) .

ونسى أنه قرر قبل ذلك ، قيام حواجز بينهم وبين العرب «بحكم اختلاف الأمزجة وتعارض الأهواء وتضارب المصالح ، بحيث يمكن اعتبار اليهود أمة قائمة بذاتها» (2) .

ويكاد كل ما قاله هذا المؤرخ فى العلاقة بين اليهود والعرب فى الجاهلية ، يناقض بعضه بعضا ويرد بعضه على بعض :

فالذى قاله عن سلطان فكرى ونفوذ دينى لليهود (ص ٧٢) وأن «اتصال العرب بهم قد أدى إلى تغيير جوهرى فى عقلية الحضر والبادية بالحجاز ، وظهرت هناك نظم جديدة طرأت على شئونهم الاجتماعية» . (ص ٧٨) .

يرد عليه وينقضه ، ما سبق أن قرره من أن «البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية فتغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم» (ص ١٢) .

والذى قاله عن امتياز العنصر اليهودى ، «فلم تستطع البطون العربية التى اختلطت به أن تتغلب على عقليته الأصلية ، بل بقى هذا العنصر ممتازا بعقليته امتيازا ظاهرا» (١٥) يرد عليه ما قرره وأكده من تعذر

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ٧٤ .

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ١١ .

«التمييز بين العنصرين ، العربى واليهودى ، من وجهة الأخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية ، لأن اليهود الذين سكنوا فى بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم فى النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربى . ولا أعلم فى تاريخ اليهود القديم إقليما تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات وتقاليد أبنائه إلى هذا الحد ، سوى إقليم الجزيرة العربية » (١) .

هكذا يعود ولفنسون فيلقى فى وجه التاريخ بفرية اندماج العنصر اليهودى بالعنصر العربى ، وما عرفهم تاريخ العرب سوى عصابات منبوذة ، لو سيطت دماؤها بدماء عربية تزايلن حتى ما يمس دم دما !

فى الوقت الذى يلقى فيه ، بأكذوبة امتياز العقلية اليهودية ، وما عرفهم تاريخ الإنسانية إلا «أفاقين مغيرين سفاكين ، خالين من الفكر كأنعامهم التى يحرسونها »(٢) .

* * *

وليس صحيحا أنهم شعروا فى أعماقهم بالأمن والاستقرار فى مستعمراتهم الجديدة التى تسللوا إليها وامتصوا خيرها . . .

فلقد ظلت فى العمق الغائر من وجدانهم ، عقدة اليهودى التائه ،

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ٢٢ .

(٢) جوستاف لوبون : اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى ٥٨ من الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر .

تؤرق مضاجعهم ، وتجعلهم بشهادة شاهد من سلالتهم « يقيمون الآطام والحصون على رءوس الجبال ليتحصنوا بها فى أوقات الحروب »[1] .

ومع فحش ثرائهم ، ظلت لهم نفسية اللص ، تجعلهم يخافون على أموالهم التى انتهبوها .

وفكرة إقامة الحصون ، طارئة على الجزيرة العربية ، أتى بها اليهود ، فكان لهم فى شمال الحجاز : حصن الأبلق للسموءل بن عاديا ، وحصن القموص لبنى أبى الحقيق ، وحصون السلالم والوطيح وناعم . . . وعشرات أخرى من الآطام والحصون ، ذكر «السمهودى» أن عددها جاوز السبعين ![2]

وليس صحيحا كذلك ، أن عرب الجاهلية فى شمال الحجاز ، قد هضموا ذلك العنصر اليهودى الدخيل ، أو سكتوا على الأمر الواقع ، بل الذى يقرره مؤرخو العرب ، أن أهل يثرب قبل الإسلام ، كانوا يضيقون بهذه العصابات الطارئة ، ويشكون اغتصابها لخيرات بلدهم ، وطالما تمردوا على الوضع وحاولوا التخلص من شر اليهود بوسيلة أو بأخرى ، قد نعرض لها بعد قليل . . .

* * *

ونحتاج هنا إلى وقفة يسيرة ، نلم فيها بشئ من تاريخ يثرب ، وأهلها العرب الأصلاء :

---

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ص ١٠ ، ١٦ .

(٢) خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى : ٨٠ .

ومؤرخونا يبدأون عمران يثرب بما بعد «الطوفان» حيث تقول الرواية العربية (١) إن مخرج أصحاب نوح من السفينة، كان عند طرف بابل، فى موضع سُمِّى سوق الثمانين بعدد من كانوا فى سفينة نوح. فمكثوا بها ثم لما كثروا وتفرقوا نزل بنو عبيل «أخي عاد» بيثرب، وهو اسم ابنه. ثم مالوا إلى موضع جاءهم به سيل فجحفهم، فسمى «الجحفة» ورثاهم رجل منهم فقال:

عينُ جودى على عبيلَ وهل ير جع من فات بيضها بالسجام
عمروا يثربا وليس فيها شفيـــــر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفُّوا النخيل بالآجام

وظلت يثرب بعدهم مهجورة، إلى أن نزحت إليها قبيلة من عرب الجنوب. القحطانية العاربة، بعد خراب سد مأرب بسيل العرم.

هذه القبيلة العربية الأصيلة هى الأوس والخزرج. ولدَى «عمرو ابن عامر آخر ملوك سبأ بمأرب» وأمهما قيلة جدة الأنصار. (٢)

ونزح إخوتهم. بنو جفنة بن غسان. بأرض الشام، فأسسوا إمارة الغساسنة العربية.

ونزلت جرهم. حول مكة. وفيها تزوج إسماعيل بن إبراهيم، جد العرب العدنانية.

* * *

وبنو قيلة. الأوس والخزرج. هم الذين امتحنوا بالعصابات اليهودية التى طرأت على المنطقة فاستنزفت خيرها. وقد حاول العرب أن يأمنوا شر

(١) السمهودى: وفاء الوفا ١/١٥٧. ومعجم البلدان لياقوت ٧/٤٢٧.
(٢) وفاء الوفا: ١/١٦٦، وياقوت (مأرب).

اليهود بعقد جوار وحلف معهم . وفى ظل ذلك الحلف ، استطاعت الأوس والخزرج أن تمارس نشاطها الحيوى « فلما صار لهم مال وعدد ، قلقت يهود قريظة والنضير ، وخافوا أن يغلبوهم ، فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى كان بينهم فأقامت الأوس والخزرج خائفين أن تجليهم يهود عن أرضهم ، إلى أن شب مالك بن العجلان ، أخو بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، وسوّده الحيان : الأوس والخزرج فكان هو الذى قتل « الفيطون » زعيم اليهود ، وقتل معه بضعة وثمانين من رجالهم ، فانكمشوا خائفين .

وكان « مالك بن عجلان » قد استعان على يهود ، أول الأمر ، بأبى جبيلة الغسانى : « رحل إليه وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه فأخبره بحالهم وضيق معاشهم » فأقبل أبو جبيلة فى جمع كثيف حتى قدم يثرب فنزل بذى حرض ، ولقيه زعماء اليهود فهلكوا بسيوف جنده .

ونقمت يهود على الأوس والخزرج ، وأمعنوا فى إيذائهم والكيد لهم . فتصدى لهم « مالك بن عجلان » وأوسعهم قتلا وإذلالا وكسر شوكتهم .

« فكانت اليهود تلعنه فى بيَعهم ومعابدهم كلما دخلوها . وقد ذلت يهود وقل امتناعهم وخافوا خوفا شديدا ، وجعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشىء يكرهونه ، لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه العرب الذين هو بين أظهرهم فيقول : إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من اليهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم . . »(١) .

(١) السمهودى : وفاء الوفا – ١٧٨/١ .
أبو الفرج الأصبهانى : الأغانى – ٩٧/١٩ ط الساسى .

وهؤلاء المنبوذون الأذلة الجبناء ، الذين انكسروا من وطأة رجل عربى واحد ، هم الذين يزعم « ولفنسون » أن العرب كانوا مواليهم وأجراءهم ! !

قال : « وبقيت هذه البطون العربية ، على أديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية فعُدت من موالى اليهود ! »

وكرر فريته مرة ثانية فقال :

« وأقام اليهود والعرب مدة طويلة يسود بينهم الوئام والوفاق ، دون أن يحدث ما يكدر أو يفرق بينهم . فكانت السلطة فى أيدى اليهود ومواليهم من البطون العربية ، وكانت الأوس والخزرج تشتغل فى الدوائر الزراعية اليهودية ، ومنهم من كانوا يشتركون مع اليهود فى قوافلهم التجارية »(١) .

وما عرفهم التاريخ غير أذلة جبناء منبوذين محتقرين .

أرهبهم سيف مالك بن العجلان الخزرجى ، فذلّوا لا يملكون لقتلاهم غير النوح والبكاء ، فتقول « سارة القرظية » :

بأهلى رِمّة لم تُغن شيئا ... بذى حَرَض تُعفّيها الرياح
كهولٌ من قريظة أتلفتهم ... سيوفُ الخزرجية والرماح

والرجال ، رجال قريظة ، منكمشون فى بيوت عبادتهم ، يلعنون ابن العجلان ، وهو يرد لعنتهم ساخرا :

وماذا علىّ بأن يَلعنوا ... وتأتى المنايا بإذلالها(٢)

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٤ ، ٥٥ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/١٨٢ .

وفى تاريخ يثرب بالجاهلية ، فصل خاص يبدأ بما لقيت يهود من مالك بن العجلان ، وعنوانه :

« فصل فى منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود »[1] .

وإنما مكن لهم من يثرب بعد ذلك ، ما شب بين الأوس والخزرج من خصام خبّ فيه اليهود ووضعوا ، وسهروا على إيقاد ناره ، لتخلو الأرض لهم .

ونقل السمهودى : «إن الأوس والخزرج لبثوا بالمدينة ما شاء الله وكلمتهم واحدة ــ على اليهود ــ ثم وقعت بينهم حروب كثيرة لم يسمع قط فى قوم أكثر منها ولا أطول »[2] .

وذكر من حروبهم فى الجاهلية : حرب سُمير ، وحرب كعب بن عمر ، ويوم السرارة ، ويوم الديك ، ويوم فارع ، ويوم الفجار ، وحرب حضير ابن الأسلت ، وحرب حاطب بن قيس . . .[2] .

وفيها ، نلمح أثر اليهود فى استبقاء الحرب بين الأوس والخزرج ، مشتعلة لا تنطفئ .

وقد كانت آخر حرب بين الأوس والخزرج ، يوم بعاث قبل الهجرة النبوية بخمس سنين . ودَوْرُ اليهود فى حرب بعاث ، معروف مشهور ، فحين ظهرت بوادر الحرب بين الأوس والخزرج ، تدخل يهود بنى قريظة يلهبونها ، بوعدٍ للأوس أن يواصلوا القتال واليهود تظاهرهم على الخزرج .

وبلغ التواطؤ سمعَ الخزرج فبعثت إلى اليهود تنذرها بأنها إن فعلت ،

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/١٩٠ .

(٢) وفاء الوفا : ١/٢١٥ وانظر معه : « أيام العرب » تصنيف جاد المولى وزميليه

« لم نثم عن الطلب أبدا ... وأسلَمُ لكم أن تدَعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا » .

وكان رد اليهود على نذير الخزرج : « إنه قد كان الذى بلغكم ، والتمست الأوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبدا » .

وأبت الخزرج أن تطمئن إلى وعد اليهود ، وأصرت على أن تأخذ رهائن منهم ضمانا لعدم غدرهم ، فبعثوا إليهم أربعين غلاما يهوديا رهائن ، ما كانوا ليحولوا دون غدر اليهود ، وإن قائلهم ليقول : « خلوهم يقتلوا الرهن ، إن هى إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن » ! !

وغدرت يهود بوعدها للخزرج حين لمحت غلبت الأوس عليهم .

وانهزمت الخزرج يوم بعاث ، ووضعت فيهم الأوس السلاح ، « وسلبتهم قريظة والنضير » !

اجتاحت العصابة اليهودية دور الخزرج تنتهب وتسلب « حتى أتوا حصن عبد الله بن أبى بن سلول ، وقد حلفوا ليهدمنه . فأبرز لهم رهائنهم أحياء ، ففرحوا بهم وأجاروه ، من الأوس ومن قريظة معا[1] . وهيئوا له أن يكون سيد أهل المدينة ، حتى ليقال إنه كان ينتظر تاجا يُصنع له ، لكى يتوج ملكا . . .

ومن ذلك اليوم ، يوم بعاث ، توثقت الصلة بين يهود وبين عبد الله ابن أُبىّ بن سلول !

(١) وفاء الوفا : ٢١٨/١ وما بعدها .

وفى حسابهم أنه إن توج ملكا على المدينة . سخروه لمصالحهم . بما يدين لهم بحياته وجاهه .

وفى حسابه أنه سوف يجد فيهم عصابة تؤازره وتظاهره على منافسيه .

ويعلق ولفنسون على يوم بعاث قائلا : «وقد ظل اليهود محتفظين بمكانتهم بين القبائل العربية ، حتى إن الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حسابا كبيرا . وكانت كل منهما تجتهد فى أن تميلهم إليها ليساعدوها فى كفاحها ضد الأخرى »[1] .

* * *

وآذن العصر الجاهلي بمغيب . وهذا العنصر الخبيث يتربص الدوائر بالأوس والخزرج ليميل مع المنتصر منهما ويسلب المهزوم .

والمستعمرات اليهودية فى شمال الحجاز تزداد ثراء بما تمتص من خير الأرض . ومرافق البلاد الحيوية قد قبضت عليها مخالب الذئاب التى خرت من مخالب النسر الرومانى .

* * *

وكانت لهم فى الجاهلية مستعمرة أخرى فى اليمن . جنوب الجزيرة . لها حكاية طويلة قبل أن تضج منهم أرض الجنوب فتلفظهم . مطاردين بجيوش الحبشة الذين قضوا عليهم قضاء مبرما ![2]

وأدع الحديث عن تلك المستعمرة الجنوبية . لأتابع سياق الأحداث مع ظهور الإسلام .

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٦٩ .

(٢) Margolioth: Relations between Arabs & Israelites. London.

فى عصر البعث

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » .

(سورة البقرة)

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم اللهُ من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعبَ يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أُولى الأبصار »

(سورة الحشر)

إرهاص

كانت الجزيرة تموج بأقوال وشائعات مرهِصة بنبي منتظر قرب زمانه.

وقد تجمعت هاتيك الإرهاصات حول البيت العتيق، مركز عبادة العرب ومثابة حجهم من قديم الحقب والأدهار.

آتية من يثرب ووادى القرى: حيث أحبار يهود. يتحدثون من كتبهم عن ذلك النبي. ليشدوا إليهم أسماع العرب وقلوبهم . . .

ومن نجران والحيرة والشام، حيث الرهبان في أديرتهم يستقبلون من يعرج عليها من العرب في رحلتى الشتاء والصيف.

ثم تصب كل هذه الأقوال عند البيت العتيق. حيث تمدها هنالك روافد من أقوال الحنفاء والكهان من العرب، نابعة من ذلك المركز الدينى الأكبر. وفيه أقدم بيت عُبِد الله فيه على الأرض[1].

* * *

وتركزت الإرهاصات حول حى معين من أحياء قريش، هو حى بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى. وبيت محدد من بيوتهم، هو بيت عبد المطلب بن عبد مناف بن هاشم: صاحب السقاية. إحدى وظائف الشرف الدينية الكبرى التى استأثرت قريش بمجدها وراثةً عن جدها «قصى» وتقاسمتها فيما بينها فكان لبنى عبد الدار: الحجابة واللواء والندوة. ولبنى عبد مناف: السقاية والرفادة.

(1) من شاء أن يقرأ تفاصيل هذه الإرهاصات، فليرجع إلى الجزء الأول من السيرة النبوية لابن هشام، والجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويرى.

تركزت هناك ، منذ حادث الفداء المشهور : كان عبد المطلب ، منذ آلت إليه السقاية ، يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة وعنت ، بسبب قلة الماء . وذكر بئر زمزم التى أنقذت حياة إسماعيل بن إبراهيم ، جد العرب العدنانية ، وجذبت إلى مكة القوافل على آثار الرعاة فبدأ به تاريخ جديد لها . وكانت البئر قد طمرتها رمال الزمن ، فألحت على عبد «المطلب» رؤيا توجهه إلى مكان معين يحفر فيه عن البئر المطمورة التى صار التفكير فيها مشغلة ليله ونهاره ، غير أنه ما كاد يهم بالحفر حتى تجمعت عليه أحياء قريش ، تمنعه أن يحفر بين وثنى «أساف ، ونائلة» حيث المكان الذى وجهت عبدَ المطلب إليه رؤياه .

واستضعفته قريش ، وعيرته وهى تقاومه وتصده ، بقلة الولد حين لم يكن له غير ابنه الحارث ، فنذر يومئذ لئن وُلد له بنون عشرة ، وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، لَينحرنَّ أحدهم عند الكعبة قربانا إلى رب البيت .

وتوافى بنوه عشرة ، وكان عبد الله أصغرهم سنا ، فتلبث عبد المطلب حتى إذا بلغوا دعاهم إلى الوفاء بنذره فلبوا طائعين .

ومضوا معه بقداحهم إلى الكعبة ، حيث ضرب عليها صاحب القداح هناك ، فخرج القدح على «عبد الله» .

وأمسك الشيخ فتاه الحبيب بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، فما كادت الشفرة تمس منحره ، حتى حالت قريش دونه وهى تهدر :

- والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟

وما زالوا به حتى قبل أن يرحل معهم إلى عرافة لهم بخيبر ، فسألتهم عن الدية فيهم ، فلما أجابوا إنها عشر من الإبل ، قالت : «فارجعوا إلى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم . وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم» .

وعادوا . فما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القِدح على عبد الله . حتى بلغت الإبل مائة ، وعندئذ خرج القِدح عليها . وأعاد عبد المطلب ضرب القداح ثلاث مرات وهى تخرج على الإبل المئة . فنُحرت ثم تُركت هناك لا يُصد عنها إنسان ولا سبع ![1] .

وارتبطت الحادثة بذكرى وعتها ذاكرة الزمان من ماض سحيق موغل فى القدم ، كان الذبيح المفتدى فيها ، إسماعيل بن إبراهيم ، جد العرب العدنانية .

ذكرى تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل ، تعود فتُمثل على المسرح نفسه ، فى البيت العتيق الذى رفع القواعدَ منه إبراهيمُ وولده إسماعيل ، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود .

* * *

وازدادت الإرهاصات ، من عام الفيل الذى وُلد فيه «محمد» ابن الذبيح المفتدى عبد الله بن عبد المطلب . وشاعت حول مولده وصباه ، مرويات تناقلتها أرجاء الجزيرة ، ووعاها الزمان !

---

(١) قصة الفداء مبسوطة بتفصيل فى : السيرة لابن هشام (١٦٢/١) وتاريخ الطبرى (١٧٣/٢) وطبقات ابن سعد (٥٣/١) ونهاية الأرب (٥٤/١٦) .

واليهود ماضون فى تأييد هذه الإرهاصات ، يستغلونها تجارة رابحة لجذب أسماع العرب والسيطرة بها على وجدانهم !

ومن قديم كان اليهود فى شمال الحجاز ، يرددون هذه البشرى من كتابهم ، ويستغلونها لحماية دورهم وأموالهم من كل غاز وطامع .

فنى الخبر ، أن أحد ملوك اليمن[1] كان قد خلف ولدا له بيثرب . وهو فى طريقه إلى المشرق . وحدث أن اغتصب الولد نخلا لأحد بنى عدى ابن النجار ، فما كاد يلمحه وهو يجُذ النخل حتى أهوى عليه بمنجله فقتله ، وهو يقول : «إنما التمر لمن أبّره».

وجاء الملك يهدر بالغضب . وهو مصمم على الانتقام من أهل يثرب وتخريب دورهم ، فذعر اليهود خوفا على أموالهم وحصونهم ، وبعثوا وافدين من أحبارهم إلى الملك ليرداه عما اعتزم من إهلاك المدينة . وفكر الحبران فما وجدا حيلة إلا أن يستغلوا بشرى النبي المنتظر خروجه من أرض الحجاز ، لترهيب الملك وتخويفه . قالا له فى لهجة النصح :

«أيها الملك ، لا تفعل . فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها . ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ، فهى دار نبى يخرج من هذا الحرم من قريش فى آخر الزمان»[2] .

فخاف الملك ، وارتد عن يثرب . .

---

(١) فى رواية ابن إسحاق (السيرة ، أنه «تبان بن أسعد» (٢١/١) ومثلها فى تاريخ الطبرى (٣٥/٢) .
وفى رواية المسعودى بمروج الذهب أنه «تبع بن حسان» ومثلها فى الروض الأنف (٢٧/١)
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢١/١ حلبى .
والسهيلى : الروض الأنف ٢٧/١ .
والسمهودى : وفاء الوفا ١٨٧/١ .

ومن ذلك الحين ، عرف اليهود قيمة هذه البشرى ، فى صد كل من يفكر فى غزو يثرب أو إهلاكها ، فمضوا يستغلونها فى مكر حيلةٍ وخبث دهاء . ويدورون بها مع الظروف ، ليجذبوا أسماع العرب بما لدى اليهود من علم بالكتاب . أو ليخوفوهم ويرهبوهم .

روى «ابن اسحاق» عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى . عن رجال من قومه قالوا :

« . كنا أهلَ شرك أصحاب أوثان ، وكان اليهود أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا . وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور . فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه تقارب زمان نبي يبعث ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم [1] » .

* * *

واللافت حقا . أن كثيرا من تلك الإرهاصات اقترنت بالخشية والحذر ، على النبي العربي المنتظر ، من كيد يهود !

وقد شارك فى هذا الحذر ، العربُ الخُلص فى جوار الحرم . والرهبان النصارى فى أديرتهم وصوامعهم .

من ذلك ما يروون من حديث «الراهب بَحِيرَى» : الذى انتهى إليه علم النصرانية . وكان يقيم بصومعته فى «بُصرى» من أرض الشام ، فربما مر به الركب من العرب ، فلا يكلمهم ولا يعرض لهم . حتى إذا كان العام الذى خرج فيه أبو طالب مع القافلة التجارية إلى الشام ، وصحب محمد ابن أخيه عبد الله ، غلاما لم يبلغ بعد . ونزل الركب قريبا من

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٢٢٥ ، ٢/٧٠ .

صومعة بحيرى ، صنع لهم طعاما ودعاهم جميعا إليه ، فلبوا وتخلف محمد فى رحالهم لصغر سنه ، حتى قال رجل من قريش : «واللات والعزى ، إنْ كان لَلُؤْمٌ بنا أن يتخلف ابن عبد الله عن طعام من بيننا» وجاء به فاحتضنه وأجلسه مع القوم .

«فيزعمون أن بحيرى لما رآه ، جعل يلحظه لحظا شديدا .. ثم أقبل على عمه أبى طالب فسأله عن أشياء فيه ، ثم قال له :

«فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهودَ فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتُ ليَبغُنَّه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده»(١) .

ومما تناقلته البيئة العربية ، أن ثلاثة من اليهود ـ سماهم ابن اسحاق(٢) ـ رأوا محمدا فى ذلك السفر ، ولمحوا عليه من المخايل ما عرفه الراهب بحيرى ، وأرادوا به شرا ، فصرفهم عنه أن علموا أنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ، إذا كان حقا ، هو الموعود بالنبوة .

وفى (السيرة النبوية لابن هشام) نقرأ أن محمدا لما خرج فى شبابه بمال خديجة إلى الشام ، قبل المبعث بنحو خمسة عشر عاما ، ودعه عمه أبو طالب وهو يخشى عليه من أذى يهود !

فإن تكن هذه المرويات منحولات وُضِعت بأَخَرة كما يرى بعض المستشرقين (٣) ـ ولسنا هنا نحاجُّهم فى ذلك ـ فإنها لتقدم إلينا دلالتها الصادقة على ما كانت البيئة العربية فى القرون الأُولى ، تحمل من سوء رأيٍ فى اليهود ، وحذرٍ من شرهم ولؤم غدرهم .

(١ ، ٢) السيرة : ١/١٩٤ .

(٣) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود ٩٤ ـ عن :

Leszynsky.. Die Juden Zu Medina

أما قصة الراهب بحيرى ، فإنها بفرض انتحالها ، تعبر عن فهم العرب لما كان النصارى يذكرونه ـ ولا ينسونه ـ من ماضي اليهود المنكر مع موسى وعيسى عليهما السلام ، ومع كل الأنبياء قبلهما ، بحيث التصق باليهود لقب «قتلة الأنبياء» .

* * *

والمستشرقون على أى حال ، لم يستطيعوا مع رفضهم لهذه المرويات ، أن ينكروا أن جزيرة العرب كانت قبيل ظهور الإسلام تجتاحها موجة من القلق المستشرف لحدث خطير ، يوشك أن يظهر فيغير ما كانت عليه الوثنية من سفه وضلال .

وإن اليهود منهم ليعترفون بأن أسلافهم كانوا ممن روّجوا البشرى بمسيح منتظر(١) .

وينزلقون من هذا الاعتراف إلى الإقرار الصريح بأن يهود الحجاز كانوا يروجون للفكرة ، ولا يريدون لها أن تتحقق بأى وجه من الوجوه !

قال إسرائيل ولفنسون رابطا بين استجابة الخزرج للرسول في بيعة العقبة الأولى ، وبين ما سمعوه من يهود عن نبي منتظر :

«وقد ملأت قصة المسيح المنتظر صحف الأدب الإسرائيلي القديم والحديث ، ومع ذلك إذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذى يحنون إليه من أزمان طويلة أنكروا ادعاءه وسفهوا قوله ورفضوا الإذعان لما يدعوهم إليه ، وكأن الأمة الإسرائيلية (؟!) كانت ترمى بهذه الفكرة إلى غاية لا يريدون تحقيقها بأى وجه من الوجوه»(١) .

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ص ٨٩ وما بعدها .

اليهود والمبعث

من «مكة» جاء النبأ .. معلنا عن مبعث نبي من العرب الأميين ، بدين سماوى جديد ..

وأرهف اليهود فى شمال الحجاز أسماعهم ، وقد خامرهم القلق والخوف من هذا الدين السماوى ، لما توقعوا أن يكشف عما زيفوه من التوراة ، وأن يسلبهم ما طالما فاخروا به من كونهم «أهل كتاب» !

وغاظهم أنهم بحيث لا يستطيعون أن ينكروا مبعث نبي جديد ، وهم الذين طالما تحدثوا إلى العرب عما فى كتابهم من بشرى به !

وشُدت عيونهم إلى مكة مهد المبعث ، وراحت آذانهم تلتقط أخبار الصراع المرير بين الوثنية والدين الجديد ، وأملهم معلق على أن تفلح قريش فى القضاء على الدعوة فى مهدها .

وفى حسابهم أن محمدا لن يستطيع أن يصمد بالقلة المستضعفة التى آمنت به ، لجموع قريش التى عبأت قواها لمقاومته ، وأمعنت فى اضطهاد المسلمين وألحت عليهم بالأذى والحصار المنهك .

حتى إذا بلغت محنة الاضطهاد أقسى مداها ، ذاع النبأ أن محمدا صلى الله عليه وسلم أذِن لأصحابه فى أن يهاجروا بدينهم . وخشي اليهود أن يتجه المهاجرون إلى شمال الحجاز ، لكنهم اتجهوا جنوبا إلى أرض الحبشة ، وعندئذ هدأ بال اليهود ، واستراحوا إلى الظن بأن الدعوة الجديد لن تلبث أن تنتهى !

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ص ١٠٢ .

فإن لم تنته ، فلعل قريشا تُشغل بها عن شئون المال والتجارة ، وقد ينهك الصراع قواها ويفرق كلمتها ويمزق شملها ، وهى القبيلة التى تستأثر بالجاه والنفوذ والثراء فى «أم القرى» وتسد فى وجه اليهود منافذ التسلل إلى البيت العتيق ، حيث الأسواق التجارية الكبرى للعرب ، فى عكاظ. ومِجَنَّة وذى المجاز

لكن الأيام مضت والأعوام ، والمسلمون يزيدون على الأذى والاضطهاد ثباتا وإصرارا . والدين الجديد يكسب فى كل يوم أتباعا من المكيين ، يستبسلون فى الجهاد تحت لوائه .

وتعلل اليهود بالأمل فى أن يبقى الصراع محصورا فى مهده بمكة ، بين المسلمين والمشركين من قريش ، بعيدا عن المستعمرات اليهودية فى يثرب وتيماء وخيبر وقريظة وفدك وأم القرى . . .

والأنباء تتتابع ، فتغذى أمل اليهود فى انحصار الصراع بين بطون قريش..

فبعد انهيار الحصار الذى فرضته مكة على المسلمين ومن والاهم من بنى هاشم ، وألجأتهم فيه إلى شِعب أبى طالب حيث لبثوا فيه نحو ثلاث سنين ، أنهكتهم جوعا وحرمانا .

وبعد أن تمزقت «صحيفة المقاطعة» المشئومة التى تعاقدت فيها قريش على بنى هاشم وبنى عبد المطلب : ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم (١) .

بعد انهيار الحصار وتمزق الصحيفة ، جاءت الأخبار من مكة تترى ، أن محمدا ــ عليه الصلاة والسلام ــ راح يعرض نفسه على قبائل العرب فى المواسم فكلما عرض نفسه على إحداها ، ردته لا تسمع منه !

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ١
تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٢ ط الحسينية بالقاهرة

فى الخبر أنه ، صلى الله عليه وسلم ، أقبل فى أحد المواسم يدعو من وفد إليه من القبائل ، إلى عبادة الله ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا قليلا مستضعفين ممن آمنوا برسالته . فلما بلغ مِنًى ، وقف على منزل قبيلة من العرب فقال :

« إنى رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه . . . » .

فتصدى عمه أبو لهب فقال : إنه إنما يدعوكم إلى أن تسلُخوا اللات والعزى من أعناقكم ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا منه .

وانصرفوا عن الرسول ، زاهدين فيما يدعوهم إليه .

وجاء منازل بنى كندة ، وعرض نفسه عليهم فأعرضوا عنه وأبوا عليه .

وفعل ذلك مع بطون من كلب ، فردوه لم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

ومع بنى حنيفة ، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردًّا عليه منهم .

بنو عامر بن صعصعة ، هم وحدهم الذين تركوه يتحدث إليهم ما شاء ، فى ذلك الموسم . فلما فرغ قال له قائلهم يساومه :

ـ إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

أجاب الرسول :

ـ الأمر إلى الله ، يضعه حيث شاء .

فازوروا عنه ، وقائلهم يقول :

ـ أفتُهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك[1] .

---

(١) ابن هشام : السيرة ٦٧/٢ .

لن يخرج الأمر إذن من مكة . ولن يتجاوز الصراع أحياء قريش حول الحرم !

وأملى الأمل لليهود عشر سنين عددا لم تغمض لهم خلالها عينٌ من ناحية النبي المبعوث بمكة .

وفى السيرة أن قريشا «بعثت النضر بن الحارث وعقبة بن معيط» إلى أحبار يهود بالمدينة لعلهم يفتونهم فى أمر محمد بماهم أهل كتاب وعندهم علم ليس عند العرب من علم الأنبياء . فاقترح عليهم الأحبار من يهود أن يعودوا فيسألوه عن ثلاث :

«سَلُوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب ؛ وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى؟» .

* * *

ولقد أوشكت الدعوة أن تصل مبكرةً إلى يثرب ؛ لكن الخزرج ، لا اليهود ؛ حسموها بحدّ السيف :

كان سويد بن الصامت الأوسى ، قدم مكة حاجا أو معتمرا ، فتصدى له رسول الله حين سمع بمقدمه ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام .

فقال له سويد : فلعل الذى معك مثل الذى معى ؟

ولما سأله الرسول عما معه أجاب :

«مجلة لقمان» ، وهو يعنى صحيفة حكمته !

فتلا عليه محمد صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن ، فلم يبعد منه حتى عاد إليه وقال :

- إن هذا لقول حسن .

وانصرف وهو يتدبر ما سمع ، وكان شاعرا حكيما ، فقدم المدينة على قومه ، وراح يتحدث إليهم عن معجزة محمد ، فلم تلبث الخزرج أن قتلته (١) على مرأى من اليهود ومسمع .

وخيل إليهم ، أن يثرب أوصدت أبوابها فى وجه الدعوة الجديدة ، فلن تنفذ إليها أبدا . .

* * *

وأقبلت السنة العاشرة للمبعث تحمل جديدا من الأحداث ، التقطتها آذان اليهود فى لهفة وتفاؤل .

ففى تلك السنة التى سماها الرسول عام الحزن ، ماتت السيدة خديجة بنت خويلد ، أم المؤمنين الأولى ، ووزير نبيهم عليه الصلاة والسلام (٢).

ومات «أبو طالب بن عبد المطلب» عم الرسول وناصره وحاميه . .

وأمعنت قريش فى طغيانها ، وقد بدا لها أنها تستطيع أن تنال من إيذاء محمد ما لم تكن تناله من قبل .

وذهب صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ماجاءهم به من رسالة الله .

خرج وحده ، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى ثلاثة من بنى عمرو ابن عمير الثقفى ، هم - يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم - وكان أحدهم متزوجا من قرشية من بنى جمح . فجلس إليهم ودعاهم إلى الله ، والتمس نصرتهم على من خالفه من قومه . فرد أحدهم بأنه يمرط ثياب الكعبة - أى ينزعه ويرمى به - إن كان الله قد أرسله !

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية جـ ٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٥٧/٢ .

وقال الثانى : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟

وكان جواب ثالث الإخوة : والله لا أكلمك أبدا : لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ، فما ينبغى لى أن أكلمك .

فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيف . وأخذ طريقه عائدا إلى مكة ، فأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى بستان لعتبة وشيبة ، ابنى ربيعة . فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف(١) .

---

(١) ابن الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٢/٢٣٠

نذر من العقبة

ورجع الرسول إلى مكة محزونا يائسا من خير ثقيف ، والموسم قد أهل ، فمضى على عادته ، يعرض نفسه على وفود القبائل العربية التى سعت إلى الحرم .

وبدت الجولة فى أولها ، لا تختلف عن جولات سابقات : فقبيل الموسم ، كان نفر من الأوس ، قد جاءوا مكة يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج . وسمع بهم رسول الله فأتاهم حيث نزلوا وقال لهم :

ـ هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

سأله كبيرهم ، أنس بن رافع : وماذاك ؟

أجاب عليه الصلاة والسلام :

ـ أنا رسول الله ، بعثنى إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا ، وأنزل علىَّ الكتاب .

وذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن .

هتف إياس بن معاذ ، وكان فتى حدثا :

ـ أى قوم ، هذا والله خير مما جئتم له .

فما كان من «أنس بن رافع» إلا أن أخذ حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ وهو يزجره قائلا :

ـ دعنا منك ، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا .

وقام عنهم صلى الله عليه وسلم ، وانصرفوا إلى يثرب ! [1] .

غير أن موقفهم من الرسول لم يكد ينتشر فى يثرب وما حولها ، معلنا أن الإسلام لا يزال بعيدا عنها ، حتى تبعه نبأ آخر ، معلنا أن الإسلام فى طريقه إلى يثرب .

فنى ذلك الموسم الذى لتى فيه الرسول ما لتى من صدود الرهط من الأوس ، مضى عليه الصلاة والسلام ، على عادته ، يعرض نفسه على القبائل ، فلما كان عند «العقبة» لتى رهطا من الخزرج ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم آيات من القرآن .

قال بعضهم لبعض : ياقوم ، تعلمو اوالله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود .

وتفتحت قلوبهم للدعوة ، وقالوا :

- إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجلَ أعز منك .

ثم أخذوا طريقهم إلى بلادهم وقد آمنوا ، فما حطوا رحالهم بيثرب ، حتى ذكروا لقومهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام ، فلم تبق دار من دورهم إلا وفيها ذكر منه ، عليه الصلاة والسلام [2] .

على مسمع من اليهود !

* * *

---

(1) السيرة : ٢/٧٩ .

وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى للسمهودى ١/٢٢١ ط السعادة بالقاهرة ١٩٥٥ .

(2) السيرة : ٢/٧١ ووفاء الوفاللسمهودى : ١/٢٢٤ .

كان أصحاب البيعة الخزرجيون ، ستة نفر أو سبعة ، لم يكن عددهم هو الذى شغل اليهود ، بقدر ما شغلهم أن الدين الجديد قد نفذ إلى يثرب ، وكان الظن أن يبقى محصورا فى مكة بين أحياء قريش لا يعدوهم إلى القبائل الأُخرى .

وقد راحوا يترصدون خطوات الدعاة من الأنصار ، متعللين ببقية من رجاء : أن يثب عليهم قومهم فيقتلوهم ، كما قتلوا «عبادة بن الصامت الأوسى» .

لكن العام دار دورته ، والأنصار ينشرون الدعوة فى أنحاء يثرب لا يصدهم عنها صاد !

حتى إذا حل الموسم ، ذاع فى المدينة أن اثنى عشر رجلا من الأنصار وافوا بالموسم ، فلقوا رسول الله عند العقبة وبايعوه . ثم عادوا إلى المدينة ومعهم رجل من أصحاب الرسول ، هو «مصعب بن عمير بن هاشم» ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقهم فى الدين .

وكان منزله على «أسعد بن زرارة» من بنى النجار ، أخوال عبد الله ، والد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وتنقل أسعد بمصعب فى دور المدينة ، يدعو إلى الإسلام ويقرأ القرآن ، فيقال إنهما توجها يوما إلى دار بنى عبد الأشهل ، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم . فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير ، وهما يومئذ سيدا قومهما وكلاهما مشرك ، على دين قومه :

ـ لا أبا لك ، انطلق إلى هذين الرجلين ـ أسعد ومصعب ـ اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا ،

فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث علمت ، كفيتك ذلك : هو ابن خالتى ولا أجد عليه مقدما .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما فقال متوعدا : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة .

فقال له مصعب :

ـ أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ؟

فركز « أسيد » حربته وجلس يسمع حديث مصعب عن الإسلام وتلاوته للقرآن ، وقد زايله تقبضه وتجهمه . ثم قال متهلل الأسارير :

ـ ما أحسن هذا الكلام وأجمله :

وأسلم . .

وانطلق بهما إلى « سعد بن معاذ » فما زال به حتى أصغى إلى مصعب ، وتفتح قلبه للإسلام .

وأسلمت بإسلامه ، بنو عبد الأشهل،[1] فكانت أول دار من دور الأنصار أسلمت[2] .

وقد كانت دور المسلمين بمكة تتجاوب منذ أول بيعة فى العقبة بشعر فى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة قبل أن يسلما :

فإن يُسلمْ السعدان يصبحْ محمد بمكة لايخشى خلاف المخالف

فياسعد سعدالأوس كن أنت ناصرًا ويا سعد سعد الخزرجِينَ الغطارف

أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا على الله فى الفردوس منية عارف

(١) ابن هشام : السيرة ٧٩/٢ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ٢٢٥/١ .

دون أن يُعرف لمن الشعر ، وكأنما هو هاتف يشدو بما كان المسلمون يرجونه من إسلام هذين الرجلين (١) . وهذا سعدُ الأوس قد أسلم ، وكذلك أسلم سعد الخزرج ، ابن عبادة ، فى بيعة العقبة .

* * *

وتوقعت يهود أن يكون لهذا الأمر ما بعده !

وصح ما توقعت :

أقبل موسم الحج فخرج «مصعب بن عمير» قاصدا مكة ، يصحبه رهط من الأنصار المسلمين ، مع حجاج قومهم من أهل الشرك .

وفى الأنصار مَن يكتم أمره عن رفاق السفر لأمر مقصود :

كانوا قد واعدوا الرسول أن يلقوه بالعقبة ، فى يوم حددوه من أيام التشريق . فلما حانت الليلة التى واعدوا الرسول ، أقبلوا على «عبد الله ابن عمرو بن حرام» فقالوا :

ـ يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه .

ودعوه إلى الإسلام ، وأخبروه بميعاد رسول الله إياهم بالعقبة .

وناموا تلك الليلة مع قومهم فى رحالهم ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد رسول الله ، يتسللون تسلل القَطا مستخفين حتى وافوه عند العقبة ، وهم عندئذ ثلاثة وسبعون رجلا ، فيهم أبو جابر عبد الله بن عمرو ، وامرأتان : نسيبة بنت كعب ، أم عمارة ، إحدى نساء بنى مازن بن النجار . وأسماء بنت عمرو بن عدى ، أم منيع ، من بنى سلمة .

وجاء عليه الصلاة والسلام ومعه عمه العباس بن عبد المطلب .

---

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ٢٢٨/١ ، وتاريخ الطبرى ٢٤٨/٢ .

فبايعوه ، وأمرهم عليه الصلاة والسلام فاختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

قال أحدهم ، العباس بن عبادة بن نضلة :

ـ والله الذى بعثك بالحق ، إن شئت لَنميلنَّ على أهل مِنى غدا بأسيافنا .

فرد عليه الصلاة والسلام :

ـ لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم .

* * *

وعادوا ، فتسللوا إلى مضاجعهم فناموا ، فلما أصبحوا ، غدت عليهم جِلة من قريش ، قد تسرب إليها نبأ البيعة . قالوا :

ـ يامعشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا . وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم .

فانبعث مشركو الأوس والخزرج ، يحلفون بالله ما كان من هذا شىء ، وما علموه .

وصدقوا ، لم يعلموه .

وعادوا فسألوا «عبد الله بن أبىٍّ بن سلول» فأنكر الأمر كله وقال لقريش :

ـ إن هذا الأمر لجسيم ، ما كان قومى ليتفوتوا علىَّ بمثله ، وما علمته كان .

فانصرفوا . .

والمسلمون الأنصار ، من الأوس والخزرج ، ينظر بعضهم إلى بعض(1)

(1) ابن هشام : السيرة ٩٠/٢ ووفاء الوفا : ٢٢٨/١ ، وتاريخ الطبرى : ٢٤١/٢

انصرفوا ليتثبتوا مما بلغهم من الأمر الخطير ، فعلموا يقينا أنه قد كان ، ولكن بعد أن كان الأوس والخزرج قد شدوا رحالهم وأخذوا طريقهم إلى يثرب . . .

والإسلام معهم ، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة غيرت موازين القوى فى قلب الحجاز بمكة معقل الوثنيين من قريش ، وفى الشمال ، بمنطقة يثرب التى كانت إلى ذلك اليوم ، معقلا ليهود . .

* * *

أمسك اليهود أنفاسهم فى انتظار عودة النقباء ، الخزرج والأوس بذلك الرهط. المؤمن من الأنصار الذين شهدوا بيعة العقبة الكبرى [1] .

وما يزال اليهود حتى اليوم ، يقفون عند بيعة العقبة ، فيأخذهم من جلال خطرها وبُعدِ أثرها ما يشبه الدوار .

وإن فيهم من يعدها بدء التاريخ الإسلامى ، ويراها أولى بذاك من عام الهجرة التى هى فى رأيهم أثر للبيعة الكبرى .

قال ولفنسون : «ومهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة ، فإنها من الحوادث ذات النتائج الخطيرة فى التاريخ الإسلامى . وإنى أعتقد أنه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك السنة ، لأن قيمتها لم تكن أقل شأنا من قيمة هجرة الرسول إلى يثرب . ومع ذلك فلم يفتهم شىء كثير ، فإن الهجرة حصلت فى السنة التالية لها عن قرب» [2] .

* * *

(1) بعضهم يسميها العقبة الثانية ، ومقتضى سياق الاحداث أن تسمى العقبة الثالثة ، كما قال العلامة السمهودى فى الوفاء (١/٢٢٨) .

(2) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٠٩

وفى غشية الدوار ، تتعذر عليهم الرؤية السليمة فيختل منطقهم ويضلون ضلالا بعيدا .

فبينا يزعمون «أن اليهود كانوا من أهم الأسباب التى ساعدت على ظهور الإسلام فى يثرب» وأنهم فى رصدهم للأحوال التى طرأت على يثرب بعد البيعة الكبرى بالعقبة «لم يكن يدور فى خلدهم أن سيحدث ما يوجه الحوادث فى تيار مضاد لمصالحهم ومضاد لكيانهم ، ولو أنهم تبينوا ما يدل على شىء من ذلك لأعلنوا الحرب جهرا منضمين إلى حلفائهم من البطون اليثربية أو منضمين مع قريش»(١) .

وبينا يتحدثون كذلك عن ألفة ووئام سادت العلاقات بين اليهود والعرب من الجاهلية إلى ما بعد الهجرة . . .

تجرى أقلامهم ، من حيث لا يدرون ، بإقرار صريح بما كان لبيعة العقبة من وقع على اليهود ، ويعترفون بما كان بينهم وبين عرب يثرب من عداوة وبغضاء .

وأترك لإسرائيل ولفنسون أن يتحدث عن أسلافه ، معلقا على بيعة الرهط الأول من الخزرج :

«وكانت بطون الخزرج تحن إلى الثأر من الأوس ومن اليهود معا ، لأنهم قد أثخنوا فيهم وبالغوا فى قتلهم»(٢) .

ثم يتجاهل أن البيعة الكبرى كان فيها أوس وخزرج ، جمعهم لواء الدين الواحد الذى آمنوا به ، ويدور حديثه عن الخزرج وحدهم ، وإن أعياه أن يوجه البيعة للثأر من الأوس ، «وإنما كانت الغاية التى يرمى

---

(١) تاريخ اليهود : ١٠٦

(٢) تاريخ اليهود : ١٠٤

إليه بنو الخزرج سياسية قبل كل شيء ، وهي إيجاد قوة لمحاربة عدوهم الذي بالغ في قتلهم وإذلالهم ؛ وهو بطون اليهود في يثرب » ص ١٠٤ .

« ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة ، لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية ، خصوصا إذا لاحظنا اتجاه الإسلام صوب المدينة وميل زعماء الخزرج إلى الاتصال بالرسول ، ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد ، مما جعل زعماء بني النضير وقريظة يراقبون حركاتهم جميعا » . ص ١٠٧ .

وإذن فقد كان هناك – بشهادة مؤرخ من سلالتهم – عداوة وثأر بين الخزرج واليهود ، وكان اليهود – باعتراف مؤرخهم – يرصدون اتجاه الأحداث بعد بيعة العقبة ، « لأنها متصلة بمصالحهم السياسية والتجارية والاجتماعية ، وبخاصة إذا لاحظنا اتجاه الدعوة صوب المدينة » .

وافتراء على التاريخ ، أن يزعم زاعم أن السابقين إلى الإسلام من الخزرج ، كانوا في بيعتهم يحنون إلى الثأر من الأوس مع اليهود . فحديث البيعة الأولى ، شاهد على أن الخزرجيين الستة الذين سبقوا إلى مبايعة الرسول بالعقبة ، خامرهم الأمل في أن يجمع اللواء الجديد بينهم وبين قومهم من الأوس ، قالوا للرسول عليه الصلاة والسلام . بعد أن أجابوه فيما دعاهم إليه :

« إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . فعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » (١) .

---

(١) السيرة لابن هشام : ٧١/٢ وتاريخ الطبري : ٢٣٤/٢ ووفاء الوفا للسمهودي : ٢٢٣/١

وقد استجاب لهم من استجاب ، من الأوس والخزرج ، قبل بيعة العقبة الكبرى ، وصلّى المسلمون من الفريقين ، وراء «مصعب بن عمير» فى يثرب ، وتوجهوا صحبة إلى مكة ، على وعد لقاء الرسول بالعقبة فى يوم معين من أيام التشريق . وكان النقباء الذين اختيروا : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس .

إنما كان العداء كله لليهود ، والمقت لشرهم وخبثهم واغتيالهم خيرات الأرض التى طرأوا عليها فما لبثوا أن استعمروها وقبضوا على كل مرافق الحياة بها .

عداء سافر صريح غير مكتوم . . . .

ففى حديث البيعة الكبرى بالعقبة ، أن الرسول قال لمن شهدها من الأوس والخزرج :

« أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » ؟

فأخذ «البراء بن معرور الأنصارى» بيده الشريفة ثم قال :

« نعم ، والذى بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعْنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلْقة ـ السلاح ـ ورثناها كابرا عن كابر » .

وعندئذ تقدم «أبو الهيثم بن التيهان الأوسى» فقال : «يا رسول الله ، إن بيننا وبين اليهود حبالا ، وإنا قاطعوها . فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ » .

فتبسم رسول الله ثم قال :

« بل الدمُ الدم والهدم الهدم ـ وتلك كانت صيغة الحلف والجوار عند العرب ـ أنا منكم وأنتم منى . أُحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم »[1]

* * *

والحق أن بيعة العقبة الكبرى ، قذفت الرعب فى قلوب اليهود ، أعداء الأوس والخزرج ، وأعداء العرب والبشر جميعا .

وما كان لهم يومئذ من أمل ، إلا أن تتواطأ قريش معهم على الأنصار ، بعد أن عجزت عن مطاردتهم بعد ذيوع نبأ البيعة الكبرى .

ولست أنا التى أقولها :

بل يقولها مؤرخهم إسرائيل ولفنسون :

« كانت العلاقات بين اليهود وبين قريش فى غاية الصفاء ، لذلك نفرض أنه إذا لم يفلح زعماء قريش فى استمالة زعماء الخزرج ـ وأين الأوس ؟ ـ فإنهم لابد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين فى المدينة »[2] .

وشهد شاهد من أهلها !

ولو لم يقلها ، لشهد بها التاريخ الذى سوف يراهم يعبئون كل طاقاتهم متواطئين مع الوثنية القرشية ، للعمل على إطفاء نور الإسلام وإحباط أعمال المسلمين بالمدينة !

* * *

---

(1) السيرة لابن هشام : ٨٥/٢ وتاريخ الطبرى : ٢٣٩/٢ ووفاء الوفا للسمهودى ٢٢٢/١

(2) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٠٩ .

صرخة في يثرب

وتلاحقت الأحداث بعد بيعة العقبة الكبرى . . .

جُن غيظ قريش ، فصبت على المسلمين بمكة ، حمما من الأذى والاضطهاد . .

وتنفس اليهود ارتياحا ، أملا فى أن تأكل نار الحرب الجميين من أهل مكة ، فيخلو الطريق لليهود !

لكنهم فوجئوا بتدفق المهاجرين من مكة ، نحو يثرب ، وقد أمرهم النبي أن يلحقوا بإخوانهم من الأنصار ، فى مأمن من قريش ، وأقام بمكة ينتظر[1] ! .

وأصبحت بيوت المهاجرين بمكة موحشة خلاء !

وعمرت بهم دور الأنصار بيثرب[1] ! .

لم يبق من المسلمين فى أم القرى – غيرَ من حُبس أو فُتن – إلا الرسولُ عليه الصلاة والسلام ، وصاحباه أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب

وكان واضحا ، أنهم لن يلبثوا أن يلحقوا بالمسلمين فى دار الهجرة .

فهل تدع قريش الأمر يفلت من يدها ، بعد ثلاثة عشر عاما من الصراع المر ؟ .

سؤال ظل يشغل بال اليهود ، حتى تسلل إليهم خبر ائتمار قريش بالرسول لتقتله :

(١) السيرة لابن هشام : ١١١/٢ ، ١١٥ وتاريخ الطبرى ٢/ ٢٣٢

وفى الخبر أن قريشا « لما رأت أن محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا منهم منعة ، فحذِروا خروج الرسول إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم . فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار قصى بن كلاب ، حيث كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين خافوه .

وغدوا إلى دار الندوة فى اليوم الذى اتعدوا له ، فقال بعضهم لبعض : « إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمِعوا فيه رأيا » .

وتعددت مقترحاتهم ، حتى قال أبو جهل بن هشام :

- والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد .

سألوه :

- وما هو يا أبا الحكم ؟

أجاب :

- أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ؛ فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضُوا منا بالعَقل فعقلناه لهم[1] - يعنى الدية .

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٢٥/٢ وتاريخ الطبرى : ٢٤٣/٢ وفيهما أسماء من حضروا الندوة من طواغيت قريش .

وتفرق المتآمرون ، وهم مجمعون على هذا الرأى ؛ وحددوا ليلتهم لذلك موعدا .

وحين كان اليهود فى انتظار الضربة الحاسمة ، حملت إليهم الريح من مكة ، نبأً نجاة الرسول من المكيدة ، وإفلاته من مطاردة قريش ، بعد أن خرج من مكة خفية ، مع صاحبه أبى بكر .

وعندئذ عرفت يهود أنه فى طريقه إلى دار الهجرة !

وأرسلوا وافدهم يترصد مقدمه ، فأخذ اليهودى مكانه على مشارف يثرب من طريق مكة .

وغير بعيد منه ، كانت المدينة كلها قد خرجت تستقبل النبى المهاجر ، فكان أهلها يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة منتظرين ، حتى تغلبهم الشمس على الظلال .

واليهودى قائم هناك فى مرصده ، لا يريم !

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا اليهودى يصرخ بأعلى صوته :

– يا بنى قيلة هذا جدكم قد جاء .

فخرجوا مسرعين ليروا الرسول فى ظل شجرة ومعه صاحبه أبو بكر فى مثل سِنّه ، وأكثرهم لم يكن رأى الرسول من قبل . فحفوا بالصاحبين وما يعرفون ، فى حشد الزحام ، أيهما الرسول ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثانى فأظله بردائه ، فعرف من لم يكن يعرف منهم ، أنه النبى الكريم .

وسرت البشرى فى أنحاء يثرب . وتعالى الهتاف يشق أجواز الفضاء ، ترحيبا بالمهاجر العظيم .

ومن عجب أن أذن التاريخ لم تُفلِت ، فى ذلك الموج الهادر ، صرخة اليهودى الذى بقى يترصد مقدم الرسول المهاجر ، فكان أول مَن لمحه وأول من أعلن عن قدومه :

ما من مؤرخ إسلامى - لم يلتقط هذه « الصرخة بأعلى الصوت » فى حديث الهجرة[1] .

وكذلك وقف عندها مورخو اليهود . . .

ويأتى أحدهم فى آخر الزمان ، فيزعم أنها صيحة ابتهاج وفرح !

ويزور على التاريخ ، فيقول إن اليهود كانوا مشوقين إلى جدّهم (؟ !) نبى الإسلام ؛ ينظرون قدومه إليهم بفارغ الصبر :

وينسى ما قرره من رصدهم لخطوات الإسلام نحو يثرب ، وتشبثهم بأملٍ فى قريش ، أن « تتفق مع زعماء اليهود ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين بالمدينة » !

كتب إسرائيل ولفنسون :

« ويلوح لى أن اليهود كانوا ينظرون بفارغ الصبر قدوم النبى إلى يثرب . وكانوا يعتقدون أنه فى مصلحتهم فقد نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبى فى يثرب بأعلى صوته : هذا جدكم قد جاء »[2]

وسجل بهامشه أنه رجع فى ذلك إلى ابن هشام فى الجزء الثالث السيرة ، ص ٨٦ .

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٣٧/٢ وتاريخ الطبرى : ٢٤٨/٢ ووفاء الوفا للسمهودى : ٢٤٤/١

(٢) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١١١

فأي زور وأي بهتان ! ؟

لقد نقل ولفنسون عبارة ابن هشام . بتحريف خبيث ، جعل الصراخ نداء ! وأوهم أنها بشرى لليهود بقدوم جدهم ! !

« نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبي في يثرب : هذا جدكم قد جاء » !

والذى قاله ابن هشام فى هذا الموضع من السيرة . وقاله ابن سعد فى طبقاته ، وقاله كل مؤرخى الإسلام وكُتاب السيرة ، من الطبرى إلى السمهودى ، رواية عن الأنصارى :

« لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوقعنا قدومه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتنا ننتظر رسول الله ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلا دخلنا ، وذلك فى أيام حارة . حتى إذا كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا . وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود وقد رأى ما كنا نصنع وأنا ننتظر قدومه صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته : يا بنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء » .

بنص عبارة ابن هشام ، عن ابن اسحاق ، فى الجزء الثانى من السيرة .

صرخ اليهودى بأعلى صوته ، ولم يناد . . . فى بنى قيلة ، لا فى اليهود . .

وبنو قيلة هم الأنصار ، نسبة إلى جَدة لهم كانت تسمى قيلة :

« هذا جدكم قد جاء » .

وليس جَد اليهود ، أى شيخهم وزعيمهم .

ويبدو أن « إسرائيل » اطمأن إلى أن كلمته المزيفة سوف تمضى وهى تحمل اسم « ابن هشام » وعليها بصمة « السيرة النبوية » .

فاستطرد يفسر شوق اليهود إلى لقاء «جدهم» الذى انتظروه بفارغ الصبر ، فقدم تفسيرا دينيا ، وآخر سياسيا واقتصاديا .

أما التفسير الدينى فهو بنص عبارته :

«كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ، وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى إسرائيل يدعو إلى توحيد الإله وإلى تعاليم التوراة (؟!) وإلى تمجيد إبراهيم وموسى ، إنما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى . ولا شك أنهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية ، وأنه كان لهذه الآيات وقع حسن فى نفوسهم (كذا ؟ !) جعلهم يؤملون فى هجرة النبى إلى يثرب آمالا كبارا» .

وأما التفسير السياسى والاقتصادى ، فنص عبارة ولفنسون فيه :

«وقد يحتمل أنهم كانوا يرجون أيضا أن يتمكن الرسول من التأليف بين البطون اليثربية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التى كانت فى حاجة شديدة إلى الهدوء والسكينة ، وكانوا يعتقدون أنه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ، ولتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها .

«من المحتمل أن آمالا من هذا النوع كانت تجيش فى صدورهم ـ اليهود ـ أثناء الفترة التى كانت بين البيعة الكبرى وبين الهجرة»[1] .

ويشهد التاريخ أنهم الذين سهروا على إيقاد نار العداوة بين العرب فى يثرب . وأنهم بعد الهجرة تواطأوا مع الوثنية فى حربها للإسلام ، وسهروا على إذكاء ضرام المعركة بوقود من الدس والتجسس والخداع .

---

(1) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١١١

لتتحقق لهم آمال ، صدق ولفنسون فى التعبير عنها : «أن تصبح يثرب (اليهودية) أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ، ويتمكن اليهود من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها» .

ولم تكن العقيدة الدينية تدخل فى حسابهم ، وإنما الحساب كله للتجارة والمال . ولو تجسد لهم الشيطان دينارا أصفر لعبدوه وخروا له ساجدين !

وأرانى سبقت الأحداث ، فلنعد إلى متابعتها من بدء الهجرة ، ولنترك لها أن تقدم لنا كلمة التاريخ فى موقف اليهود بين الوثنية والإسلام . وماذا صنعوا لدعوة التوحيد التى جعلتهم يؤملون فى هجرة النبى إلى يثرب آمالا كبارا ! ؟ .

وأكتفى هنا ، فى الرد على زعم «ولفنسون» عن فرح اليهود بالهجرة ، بحديث للسيدة «صفية بنت حُيى بن أخطب» بعد أن أسلمت ودخلت بيت الرسول عليه الصلاة والسلام .

قالت ، تسترجع ذكرياتها عن يوم الهجرة :

«كنت أحبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه . فلما قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة غدا عليه أبى وعمى مغلِّسين ، بين الفجر والصبح ، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس . فأتيا كالَّين ساقطين يمشيان الهوينى ، فهششتُ إليهما كما كنت أصنع فوالله ما التفت إلىَّ واحدٌ منهما مع ما بهما من الغم . وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟

قال : نعم والله .

سأله عمى : أتعرفه وتثبته ؟

قال : نعم والله . فقال له عمى :

– فما فى نفسك منه ؟ أجاب :

– عداوته والله ما بقيت »[1] .

* * *

وأخرى . ذكرها مؤرخو الإسلام عن شائعة راجت فى المدينة إثر الهجرة ، تردد ما أكده اليهود من أنهم سحروا المهاجرين فلن يولد لهم ولدٌ فى دار الهجرة :

نقل « الإمام الطبرى » عن الواقدى فى أخبار السنة الأولى للهجرة ، أنه لمّا « وُلد عبد الله بن الزبير ، وكان أول مولود ولد من المهاجرين فى دار الهجرة ، كبّر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وُلِد ، وذلك أن المسلمين كانوا قد تحدثوا أن اليهود يذكرون أنهم سحروهم فلا يولَد لهم ، فكان تكبيرهم ذلك سروراً منهم بتكذيب الله اليهودَ فيما قالوا من ذلك ! »[2]

* * *

(١) السمهودى – وفاء الوفا : ١/٢٧٠

(٢) تاريخ الأمم والملوك : ٢/٢٥٨

مِيثاق... وَغَدْرٌ

لأول مرة ، منذ بدأ المروى من تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ، نراهم قد تذكروا أن لهم أحباراً لديهم علم بالكتاب الذى نسوه !

وأقبلوا يتذاكرون أسفارهم ، ويستخرجون منها ما يؤولونه لحماية وجودهم المغتصب . .

وقد مضى عليهم قبل الهجرة قرون ذات عدد ، منذ وطئت أقدامهم شمال الحجاز ، فما عهدناهم فيما رُوى من أخبارهم ، مشغولين بنبي ولا كتاب . اللهم إلا ما روّجود من بشرى نبي منتظر ، يستغلونها لإرهاب من يريد بهم سوءًا .

وإذ فتحت يثرب أبوابها وقلبها للنبي المهاجر وصحابته ، واستحدثت لها اسما إسلاميا جديدا هو « مدينة الرسول » .

لم يبق لليهود من أمل ، إلا أن يذكر النبي المهاجر ، أنهم أهل كتاب ، وأتباع نبي مرسل ، هو موسى عليه السلام .

والقرآن ، فيما سمع اليهود من آياته ، مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، مقر بنبوة موسى وإبراهيم وكل الأنبياء ، لا يفرق بين أحد من رسل الله .

ولا أستبعد أن يكون خطر ببالهم ، وهم يواجهون الإسلام فى المدينة ، ما خطر ببال سليلهم « ولفنسون » بعد نحو أربعة عشر قرنا من الزمان : أن يتصور المسلمون أن اليهود هم الذين هيئوا تربة المدينة للدين الجديد ،

وأعدوا نفوس أهلها لاستقبال الإسلام ؛ وآذانهم للإصغاء إلى تعاليمه ، « فلم تكد تسمع دعوة الرسول حتى قبلتها واعتقدتها ، ووجدت دعوة الرسول فى هذه النفوس أرضا خصبة صالحة لنمو الدين الجديد فيها وازدهاره . ولاشك أن هذا أثر من آثار التعاليم اليهودية ونتيجة من نتائج الاختلاط الشديد بيهود يثرب . . .

« وهكذا بعد تلك الشدائد والرزايا التى نزلت بالنبى بسبب عرضه دينه على العرب فى تمسكهم الشديد بالقديم وهجومهم على كل من يتعرض لدين آبائهم ، وجد أمامه بطونا يثربية دخلت فى دينه بلا مقاومة ، وأخذ أفرادها ينظرون إليه نظر التعظيم والتقديس لما ألقى عليهم الرسول .

« ومن هنا يمكن أن يقال إن اليهود كانوا من أهم الأسباب التى ساعدت على ظهور الإسلام وإن يكن ذلك بطريقة غير مباشرة »[1] .

أجل لا أستبعد أن يكون اليهود قد خطر لهم أن يَمُنُّوا على الإسلام بتفتح المدينة لاستقباله ، وأن يفسروا استجابة الأنصار من أهل المدينة للرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا التفسير الذى يلوبها نحوهم ليًّا !

وتقدم اليهود ، بكل تواضع ومسكنة ، يرحبون بقدوم النبى المهاجر ، ويسألونه الموادعة ، والأمان ، وله عليهم أن يكونوا مع أهل المدينة ضد أى عدوان من وثنيى مكة !

وكان الضمان : ما يعرف العرب المسلمون عن اليهود من حرص على سلامة المنطقة وأمنها ، ولهم فيها مستعمرات خصبة غنية ، وتجارة يملكون قيادها ، وحصون مكدسة بالمال[2] .

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١١١

(٢) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٢٦

وأعطاهم الرسول عهده بالموادعة ، مسجلا فى كتابه إلى أهل المدينة ، إثر هجرته عليه الصلاة والسلام إليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس . . .

« وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم » . . .

«وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سَواء وعدل بينهم . . .

« .... وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ - يهلك - إلا نفسه وأهل بيته » .

- ثم نص الكتاب على أن لليهود (من موالى) بنى النجار ، وبنى الحارث ، ويهود ساعدة ، وبنى الأوس ، وبنى ثعلبة ، وبنى الشطيبة ، مثل ما ليهود بنى عوف . وإن بطانة يهود ، أى خاصتهم وأهل بيتهم ، كأنفسهم .

« وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . وإن بينهم النصح والنصيحة والبر

دون الإثم . وإنه لم يأثم امرو بحليفه ، وإن النصر للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفُها لأهل هذه الصحيفة . وإن الجار كالنفس غير مُضارّ ولا آثم . وإنه لا تُجار حُرمة إلا بإذن أهلها . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدَثٍ أو اشتجار يُخاف فسادُه فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

«وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها . وإن بينهم النصر على دَهم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ، إلا من حارب فى الدين ، على كلِّ أُناس حِصَّتُهم من جانبهم الذى قِبَلَهم .

« وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

« وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه . وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبرّه . وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم . وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم . وإن اللهَ جار لمن بَر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) .

* * *

والصحيفة كما ترى ، وثيقة تاريخية شاهدة على مدى تغلغل اليهود فى يثرب :

وهى مع ذلك لم تذكر غير البطون اليهودية الصغيرة الناشبة فى البطون العربية والمعدودة من مواليها .

---

(١) ابن هشام : السيرة ١٤٩/٢

وسكتت عن العصابات الكبرى ، فى المستعمرات اليهودية بخيبر وبنى النضير وبنى قريظة وتيماء ووادى القرى وغُدية . و . . و .

بل لم تشر كذلك إلى «بنى قينقاع» فى صميم المدينة .

* * *

والتقط كل اليهود مع ذلك أنفاسهم ، فقد كشفت الصحيفة عن ميل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الموادعة والمسالمة ، ثم إن احترامه لدين اليهود يؤمّن وجودهم . كما أن اعتراف العهد بهم جيرانًا وحلفاء للعرب المسلمين ، يعطيهم فرصة للعمل .

وانطوت العصابات اليهودية على ضغنها ، تعد أسلحتها السامة من الغدر والشر لتحارب الإسلام دون أن تتعرض لصدام مسلح !

وما كان أكثر أسلحتهم المسمومة !

وما أسرع ما استخدموها لحرب الإسلام !

* * *

نقموا على الإسلام أن ألّف بين الأوس والخزرج ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

فهل من سبيل إلى إهاجة العداوة بينهم ؟

لم لا ؟ على أن تبدو حوادث فردية ، يحمل الأفراد إثمها دون سائر اليهود .

« مر شيخ من اليهود ، اسمه شاس بن قيس ، على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذاتِ بينهم بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية . فقال : قد اجتمع ملأ من بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار . فأمر شابا من يهود كان معه أن : اجلس إليهم ثم اذكر يوم

بعاث وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا من الأشعار » .

وكاد السهم المسموم يبلغ غايته من إيقاظ فتنة نامت ، لولا أن تداركه الرسول صلى الله عليه وسلم بحكمته ، فارتد السهم :

« تنازع القوم وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الرُّكَب وقال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جَذَعة . وغضب الفريقان جميعا ، وتواعدوا الحَرّةَ فخرجوا إليها . وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج فى جمع من المهاجرين حتى جاء الأنصار من أوس وخزرج فقال :

« يا معشر المسلمين ، اللهَ اللهَ ! أبدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ؟ » .

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الأوس والخزرج بعضهم بعضا . ثم انصرفوا مع رسول الله وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله ! (١) .

فيقال إن هذه الآيات نزلت فيهم :

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أُوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تُتلى عليكم آياتُ الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هُدِى إلى صراط مستقيم » .

إلى قوله تعالى :

« واعتصموا بحبلِ اللهِ جميعا ولا تَفَرّقوا ، واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبِكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شَفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين اللهُ لكم آياتِه لعلكم تهتدون .

(١) السيرة لابن هشام : ٢/٢٠٤

ولتكنْ منكم أُمةٌ يدعون إلى الخيرِ ويأمرون بالمعروفِ وينهَون عن المنكرِ ، وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدِ ماجاءهم البيناتُ ، وأولئك لهم عذابٌ عظيم »[1] .

* * *

ارتد السهم لم يصب . . .

وبقيت سهام أخرى ، يُمكن أن تصيب ، على أن تبدو حوادث فردية ، يحتمل الأفراد تبعتها دون جماعة اليهود :

يندس يهودى أو آخر بين المسلمين ، فيحاول أن يفتن أحدهم عن دينه !

كمثل ما فعل «حُيَى بن أخطب وأخوه أبو ياسر » وكانا من أشد اليهود حسدا للأنصار ، فكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا[2] . فأنزل الله تعالى فيهما ، وفى أمثالهما من يهود : «ودَّ كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يردونكم من بعد إيمانِكم كفارا ، حسدا من عندِ أنفسِهم مِن بعد ما تبين لهم الحقُّ ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتىَ اللهُ بأمرِه ، إن اللهَ على كل شىءٍ قدير »[3] .

إمهال ، لا إهمال !

وارتد ذلك السهم أيضًا ، لم يصب .

فهل تفلح السخرية والهزء ، حيث لم يفلح السعى إلى تمزيق الشمل ؟

يجوز . .

---

(١) سورة آل عمران : الآيات ٩٨ ، ١٠٥

(٢) وفاء الوفا : ٢٦٩/١ وانظر مانقلناه من حديث السيدة صفية بنت حيي : ص٨٢

(٣) سورة البقرة : آية ١٠٩

بشرط أن تبدو أحداثا فردية ، لا يحتمل اليهود جميعا إثمها :

مات فى الأشهر الأولى للهجرة نقيب بنى النجار : «أبو أمامة ، أسعد ابن زرارة» أخذته الذبحة أو الشهقة .

واندس اليهود فى الناس يقولون : لو كان محمد نبيا لم يمت صاحبه !

وبلغت قالتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يعلق عليها ولا أملك لنفسى ولا لصاحبي من الله شيئا(١) .

وفى الخبر أن بنى النجار قالوا لرسول الله ، لما مات نقيبهم أبو أمامة أسعد بن زرارة :

ـ يا رسول الله ، إنه قد كان منا حيث قد علمت ، فاجعل منا رجلا مكانه يقيم من أمرنا ما كان يقيمه .

فقال صلى الله عليه وسلم :

ـ أنتم أخوالى ، وأنا بما فيكم ، وأنا نقيبكم .

فكان ذلك مما يعتز به بنو النجار ويعدونه على قومهم من فضل : [أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نقيبهم(٢) .

« وسمع اليهود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر سليمان بن داود فى المرسلين فقال بعض أحبارهم : ألا تعجبون من محمد ؟ يزعم أن سليمان ابن داود كان نبيًّا ، والله ما كان إلا ساحرا » .

وقال تعالى :

« أو كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون .

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٥٣/٢
(٢) السيرة لابن هشام : ١٥٤/٢

ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمانَ وما كفر سليمانُ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أُنزل على الملكين ببابلَ هاروتَ وماروت »(١) .

* * *

ذلك ومثله ، من أحداث فردية ، شغلت اليهود فى الأشهر الأولى للهجرة ، ريثما عكف أحبارهم على مطالعة أسفارهم ، وفحص ما يتلو محمد صلى الله عليه وسلم من آيات القرآن ، ثم تجردوا للكيد له .

---

(١) سورة البقرة ، ١٠٠ : ١٠٢

سُمُّ الأحْبَار

وأطمعهم فى ذلك ، أن استطاعوا أن يُشرِبوا بعضَ من أسلموا ، سمَّ النفاق : ألسنتهم مع الرسول وقلوبهم عليه . وكان زعيم المنافقين ، صديق اليهود «عبد الله بن أبى» .

من أحبار يهود ، من تعوذ بالإسلام ودخل فيه ، ليكيد له .

وأولئك كانت كثرتهم من بنى قينقاع !

فيهم ابن حنيف ، وابن حريملة . وابن التابوت ، وزيد بن اللصيت ، الذى سمع مرة أن ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضلت ، فقال :

«يزعم محمد أنه يأتيه خبرُ السماء وهو لايدرى أين ناقته ؟»[1] .

وكان هؤلاء الأحبار الذين تعوذوا بالإسلام ودخلوا فيه نفاقا ، يحضرون مسجد الرسول بالمدينة ، فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم . فاجتمع يوما فى المسجد منهم ناس ، فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض . فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا .

«قام أبو أيوب الأنصارى إلى أحدهم ، رافع بن وديعة ، فلببه بردائه ثم أخرجه من المسجد وهو يقول له : أف لك منافقا خبيثًا ، أدراجَك يا منافق من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) ابن هشام : السيرة ١٧٤/٢

وقام عمارة بن حزم الأنصارى ، إلى شيخ منهم طويل اللحية ، فأخذ بلحيته فقاده بها قودا عنيفا حتى أخرجه من المسجد ، وقال :

« أبعدك الله يا منافق ، فما أعدَّ الله لك من العذاب أشد من ذلك فلا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقام عبد الله بن الحارث الخزرجى الأنصارى ، إلى رجل منهم كان ذا جمة ، فأخذ بجمته فسحبه بها سحبا عنيفا حتى أخرجه وقال له :

« يا عدو الله ، لا تقربن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنك نجس »

فيقال إن هذه الآيات من سورة البقرة ، أول سورة مدنية ، نزلت فى المنافقين من أحبار اليهود ، والذين شايعوهم من الأوس والخزرج على النفاق :

« إن الذين كفروا سواءٌ عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم اللهُ على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غِشاوة ولهم عذاب عظيم . ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون اللهَ والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » .

إلى قوله تعالى :

« وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربِحت تجارتُهم وما كانوا مهتدين . مثلُهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون .

أو كصيِّبٍ من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذرَ الموتِ ، واللهُ محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء اللهُ لذهب بسمعهم وأبصارهم ، إن الله على كل شيء قدير »[1] .

* * *

وتلتها آيات صادعة تذكِّر بنى إسرائيل بما أنعم الله عليهم به ، وتحذرهم من نقض الميثاق مع رسوله عليه الصلاة والسلام ، وتروى ما كان من إعناتهم لنبيهم موسى عليه السلام ، وتشهد عليهم بالغدر وتحريف كلام الله ، والمكفر ، حتى باءوا بلعنة الله تعالى :

« أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون . ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين[2] »

* * *

وأحبار يهود ، لم يكونوا بحيث يجهلون أن سم النفاق الذى بثوه ، بطيء الأثر .

ومن ثم عبّئوا قوى شرهم وخبثهم ، لإعنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، والدخول معه فى جدل عقيم .

وبدأت حملة منظمة مدبرة ، من جدل الأحبار من يهود ، شغلت المجتمع المدنى شهورا ذات عدد من السنة الأولى للهجرة ، وصدرَ السنة الثانية .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٥ : ٢٠

(٢) سورة البقرة الآيات ٤٧ : ٨٩

جاءه نفر من أحبار يهود فقالوا :

«يا محمد ، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك» .

وكانت أسئلتهم : كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة للرجل ؟ كيف نومه ؟ وما ذا حرم إسرائيل على نفسه ؟ وما الروح ؟ !(١)

وجاءه أبو صَلُوبا الفِطيونى فقال :

- يا محمد ، ما جئتَنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية فنتبعك بها(١) .

ولما صُرِفت القبلة عن الشام إلى الكعبة ، فى رجب على رأس سبعة عشر شهرا من هجرة الرسول ، أتاه نفر من اليهود فقالوا :

« يا محمد ، ما ولّاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك .

ونزل فيهم قوله تعالى :

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل للهِ المشرقُ والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمةً وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القِبلة التى كنتَ عليها إلا لنعلم مَن يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرةً إلا على الذين هدى اللهُ وما كان اللهُ ليُضِيعَ إيمانكم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم . قد نرى تقلُّبَ وجهِك فى السماء فلنُولِينَّك قبلة ترضاها فولِّ وجهك شطرَ المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولُّوا

(١) ارجع الى نص هذه الأسئلة والجواب عنها فى السيرة لابن هشام ١٩١/٢ ، ١٩٦

وجوهَكم شطرَه ، وإن الذين أُوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحقُّ من ربهم وما الله بغافِلٍ عما يعملون »[1] .

وطال جدلهم ، يريدون به إعنات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبث الفتنة فى قلوب الأنصار . وبلغت بهم القحة والجرأة ، أن باهوا بما جمعوا من مال حرام ، وزعموا أنهم به فى غنى عن الله ، وأنه سبحانه إليهم لفقير !

دخل « أبو بكر الصديق » بيت المدراس على يهود – وهو البيت الذى يتدارسون فيه أسفارهم – فوجد فيه ناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى حبرين منهم ، يقال لهما « أشيع وفنحاص » . قال أبو بكر لفنحاص :

« ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا لرسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل »

قال فنحاص ، عدو الله :

« والله يا أبا بكر ، مابنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير . وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنا بغنى . ولو كان عنا غنيا ما استقرضَنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه ، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا » [2]

قالوا : فغضب أبو بكر ولطم وجه فنحاص وقال : والذى نفسى بيده ، لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت رأسك أى عدو الله » .

---

(١) سورة البقرة : آيات ١٤٢ : ١٤٤ .

(٢) يشير اليهودى الى مافى القرآن الكريم من حث المؤمنين على أن يقرضوا الله قرضا حسنا ، بالصدقات وبذل المال فى وجوه الخير ، فيضاعفه لهم !

فمضى فنحاص إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، يشكو إليه ما صنع به صاحبه أبو بكر . . .

وأنكر أنه قال شيئا مما أغضب الصِديق .

ونزل قوله تعالى :

«لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا ، وقتلَهم الأنبياءَ بغير حق ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق » .

* * *

ولقد ذكر أبو بكر الصديق العهد الذى بين المسلمين ويهود . . .

وما كان اليهود بحيث يعنيهم عهد .

فى الوقت الذى عبّئوا فيه أحبارهم لشغل الرسول بجدلهم العقيم ، بعثوا نفرا من الأحبار إلى مكة يحزبون الأحزاب من قريش وغطفان ضد الإسلام ويؤلبونهم على الرسول ، وسيأتى ذكر هذه المؤامرة ، فى غزوة الأحزاب .

قال الوثنيون من قريش حين قدموا عليهم : هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول ، فسلوهم ، أدينكم خير أم دين محمد ؟

وسألوهم ، فأجابوا :

«بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه » (١) .

وقال فيهم سبحانه وتعالى :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » .

---

(١) السيرة لابن هشام : ٢١١/٢

وقال فيهم سليلهم إسرائيل ولفنسون :

« كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم . . .

« ويظهر أنهم كانوا يعتقدون ، أو على الأقل يرجون ، أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل فى دينهم حيث يتعاونون على محو عبادة الأوثان ، وقد يحتمل أنهم كانوا يرجون أيضا أن يتمكن الرسول من التأليف بين البطون اليثربية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التى كانت فى أشد الحاجة إلى الهدوء والسكينة ، وكانوا يعتقدون أنه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ، ولتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها »(١) .

وهؤلاء المتشوقون للرسول ، المعلقون عليه آمالهم الكبار ، هم الذين ائتمروا به ليقتلوه غدرا وغيلة ، والعهد بينه وبينهم قائم ؛ على ما سوف نفصل الحديث عنه ، فى غزوة بنى النضير .

* * *

وازدادوا على موادعة الرسول وحلمه جرأة وعنادا ، حتى أنكروا أنهم الذين سبقوا فبشروا بقرب مبعثه .

وواجهوا رسول الله والصحابة بهذا الإنكار الجرئ الكافر .

تحدث إليهم من الأنصار « معاذ بن جبل ، وسعد بن عبادة ، وعقبة ابن وهب » قالوا :

« يا معشر يهود . اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته » .

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١١١

فرد منهم رافع بن حريملة ووهب بن يهوذا :

– ما قلنا لكم هذا قط. ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده[١] .

* * *

وأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة منهم – سماهم ابن اسحاق[١] – فكلموه وكلمهم ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا ؛ كما قال بعض النصارى :

– ما تخوفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه . فأنزل الله تعالى فيهم .

«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير»[٢] .

ودخلت جماعة منهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم :

«أما والله إنكم لتعلمون أنى رسول الله إليكم .

وكان ردهم :

– ما نعلمه ، وما نشهد عليه .

« لكنِ اللهُ يشهد بما أنزَل إليك ، أنزله بعلمه والملائكةُ يشهدون ، وكفى بالله شهيدا . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا »[٣] .

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢١٢/٢

(٢) ابن هشام : السيرة ٢١٢/٢

(٣) ابن هشام : السيرة ٢١١/٢ والآية من سورة النساء : ١٦٦

وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء من أحبارهم ، منهم «ابن صُوريا الأعور ، وكعب بن أسد» فقال لهم :

– يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا فوالله إنكم لتعلمون أن الذى جئتكم به لحق .

ردوا :

– ما نعرف ذلك يا محمد . . [1] .

وأصروا على الكفر ، وما زال الإسلام يمهلهم :

«يا أيها الذين أُوتوا الكتابَ آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبلِ أن نطمسَ وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنَهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا» .

والإسلام يمهل ، وهم ماضون على كفرهم وشرهم ، يخالطون الأنصار ، محتمين بعهد المسالمة ، وينصحون لهم قائلين : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون علام يكون !

نصح لهم بذلك عدد من يهود ، ذكر منهم «ابن إسحاق» : كردم ابن قيس ، وأُسامة بن حبيب ، ونافع بن أبى نافع ، وبحرى بن عمرو ، وحيي بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت[2] .

وفيهم ، فيما يُروى ، نزلت الآيات :

«الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدْنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناسِ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا»[3]

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢/٢٠٩
(٢) السيرة : ٢/٢٠٨
(٣) سورة النساء : ٣٧ ، ٣٨

وبدا أن المجتمع المدنى فى حاجة إلى تطهير مما تنفسوا فيه من سموم الشر والنفاق .

ونزلت آيات آل عمران ، ثالثة السور المدنية ، تنهى الذين آمنوا عن مباطنة اليهود وتحذرهم من شرهم :

«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونِكم لا يألونكم خَبالا ، ودُّوا ما عنتّم قد بدت البغضاءُ من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبرُ قد بينا لكم الآياتِ إن كنتم تعقلون . ها أنتم أُولاءِ تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلَوا عضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن اللهَ عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنةٌ تَسؤهم وإن تُصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط »[1] .

والجدل مستمر ، قصدَ الإعنات :

« جبل بن أبى قشير وشمويل بن زيد » من أحبار يهود ، يقولان لرسول الله :

– يا محمد ، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيا .

ومحمد يتلو من آيات ربه : « يسألونك عن الساعة أيان مُرساها قل إنما علمها عند ربى لا يُجَلِّيها لوقتِها إلا هو ، ثقُلت فى السموات والأرضِ لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفِيٌّ عنها قل إنما عِلمُها عند اللهِ ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وعصابة منهم ، فيهم ابن سيحان وابن أضاءَ وعُزير بن أبى عزير وسلاّم بن مِشكم ، يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم :

(١) الآيات : ١١٨ : ١٢٠ من آل عمران

- أحق يا محمد أن هذا الذى جئتَ به لحق من عند الله ، فإنا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة ؟

والرسول يجيب :

- أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به[1]

وفنحاص ، وابن صوريا ، وابن صَلوبا ، وأشيع وكنانة بن الربيع بن أبى الحُقيق ، وابن أسد ، وشمويل بن زيد ، وجبل بن عمرو ، يحاورونه فى تحدٍّ خبيث[2] :

- يا محمد ، أما يُعلمك هذا ، إنسٌ ولا جِن ؟

ورسول الله يجيب :

- أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله ، تجدون ذلك مكتوبا عندكم فى التوراة .

فيقترحون عليه ، كما اقترح الوثنيون من قريش بمكة !

- يا محمد ، فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاءُ ، ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه ، وإلا جئناك بمثل ما تأتى به .

والرسول يتلو من وحى ربه آية الإسراء المكية :

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

ويمضون فى لجاجتهم ، فيسألونه عن ذى القرنين ، والرسول يتلو ما نزل عليه من وحى ربه حين سأله المشركون السؤال نفسه ، بإيعاز من يهود !

ويأتيه رهط فاجر ملعون ، يسألونه :

(١ ، ٢) ابن هشام : السيرة ٢/٢٢٠

– يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ (١)

فهمّ بهم الرسول يساورهم غضبا لربه ، ثم استرجع يتلو من وحى ربه :

« قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كُفُوا أحد » .

وعادوا يسألونه :

– فصِفْ لنا يا محمد كيف خَلْقُه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟(١) .

فغضب رسول الله أشد من غضبه الأول ، وساورهم .

* * *

وحين جاء وفد من « نصارى نجران » إلى المدينة – قيل كانوا ستين رجلا من رؤسائهم وذوى الرأى فيهم – يَختبرون أمر النبى عليه الصلاة والسلام ويحاجُّونه ، تربص يهود يرجون أن يعنتوا الرسول .

ولكن الرسول قطع حجة النصارى ، بما تلا من وحى ربه ، فوادعوه وانصرفوا على دينهم ، على ما هو مفصل فى كتب السيرة وتاريخ الإسلام .

وفى خبر وفد نجران ، نزلت آية المباهلة :

« فمَن حاجَّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسَكم ثم نبتهل فنجعلْ لعنة الله على الكاذبين . إن هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم . فإن تولَّوا فإن الله عليم بالمفسدين . قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشركَ به شيئا ولا يتخذ بعضُنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »(٢)

* * *

(١) ابن هشام : السيرة ٢٢١/٢

(٢) آل عمران – ٦١ : ٦٤

بَوادِرُ الصِّدام

حتى ذلك الحين ، لم يكن قتال قد بدأ بعد بين الإسلام وأعدائه ، بل مضى العام الأول للهجرة ، وبعض العام الثانى ، دون صدام مسلح .

والرسول صلى الله عليه وسلم ، قد أذن له فى القتال دفاعا عن الإسلام وحق سعتنقيه فى حرية العقيدة والتدين ، غير أنه تمهل ريثما يستقر الوضع فى المجتمع الإسلامى بدار الهجرة ، التى صارت مركز التعبئة الإسلامية والتجمع للجهاد فى سبيل الله .

بقدر ما كانت فى الوقت نفسه ، المركز التى تتجه إليه كل التيارات المعادية للإسلام ، من يهود المنطقة ووثنيي العرب .

واليهود ، بحكم وجودهم فى يثرب وما حولها ، قد بدأوا الحرب من اليوم الأول للمبعث ، بأسلحتهم التى لا يعرفون سواها : الكيد والدس والفتنة والجدل المعنت .

أما مكة ، مركز الوثنية ، فلبثت فى تلك الفترة الأولى تنتظر ماذا يكون من أمر الدين الجديد بعد أن وجد فى دار الهجرة مأمنا وأنصارا .

لكن القتال المحتوم بين الإسلام والوثنية ، لم يلبث أن لاحت بوادره فى مستهل السنة الثانية للهجرة ، وإن لم يبلغ فى تلك المرحلة ، حد الصدام المسلح .

فنى شهر صفر ، خرج صلى الله عليه وسلم غازيا ، فوصل إلى ودَّان .

وخرج بعدها ، فى ربيع الأول ، فى «غزوة بُواط» من ناحية رضوى ،

ثم فى « غزوة العشيرة » من بطن ينبع ، حيث وادعه بها بنو مدلج . ثم فى «غزوة سفوان » - وتعرف بغزوة بدر الأولى - ففاته ركب قريش ، لم يدركه(1) . .

كذلك بعث الرسول عليه الصلاة والسلام فى تلك الأشهر الأولى من السنة الثانية للهجرة ، عددا من السرايا : منها سرية عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب نحو الحجاز ، وسرية حمزة بن عبد المطلب فى ثلاثين مهاجرا ، لقيت أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة راكب عند «العيص» بسيف البحر ، فحجز بينهم ابن عمرو الجهنى - وكان موادعا للفريقين ، فانصرفوا دون قتال . ثم سرية سعد بن أبى وقاص ، التى اقتربت من الحجاز ثم عادت ولم تلق كيدا .

بعدها ، فى أوائل رجب ، كانت سرية عبد الله بن جحش التى آذنت بالصدام المسلح :

خرج عبد الله فى رهط من المهاجرين ، فنزل فيما بين مكة والطائف ، حيث نزلت قريبا منهم ، عِيرٌ لقريش عليها عمرو بن الحضرمى ، فتهيب المسلمون القتال فى رجب ، وهو من الأشهر الحرم ، وتلبثوا حتى أهل شعبان ، وشدوا على قريش ، فأصيب عمرو بن الحضرمى بسهم قاتل أرداه صريعا ، وفر القرشيون عن عِيرهم ، وعن أسيرين منهم .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين ، حتى قدموا على الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وأنذرت الحادثة بحرب !

---

(1) انظر هذه المغازى فى طبقات ابن سعد ، الجزء الثانى . وفى تاريخ الطبرى ، السنة الثانية من الهجرة .

وكانت يهود ، خلال تلك الفترة ، راصدة تترقب .

فلما عادت سرية عبد الله بن جحش بعير قريش ، تفاءل بها اليهود وذاعت قالتها الخبيثة فى المدينة :

«عير قريش غنيمة للمسلمين ؟ »

و «عمرو بن الحضرمى ، قتله واقد بن عبد الله . .

«عمرو ، عمرت الحرب .

«والحضرمى ، حضرت الحرب .

«وواقد : وقدت الحرب .

«فجعل الله ذلك عليهم ، لا لهم » .

فيجاوبها صدى من هتاف المسلمين بشعرٍ لعبد الله بن جحش :

سقينا من ابن الحضرمى رماحَنا بنخلةَ لما أوقد الحربَ واقدُ

دما ، وابنُ عبد الله عثمان بيننا ينازعه غل من القد عاندُ(1)

وفى الشهر التالى ، رمضان من السنة الثانية للهجرة ، كانت غزوة بدر الكبرى ؛ أولى المواقع الحاسمة فى تاريخ الإسلام . . . وبدء مرحلة جديدة ، فى تاريخ اليهود بجزيرة العرب !

(1) ابن هشام : السيره ٢/٢٥٤ ، وتاريخ الطبرى : ٢/٢٦٣

يَوْمُ بَدْرٍ

لم يكن قد مضى شهر على مقتل ابن الحضرمى ، فى سرية عبد الله بن جحش ، حين سمع الرسول صلى الله عليه وسلم بأبى سفيان بن حرب ، مقبلا من الشام فى عير عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة ، فندب الرسول المسلمين إليها ، فخف بعضهم ملبيا ، وثقل بعضهم وقد ظنوا أن الرسول يلقى حربا .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، فلما بلغه أن محمدا قد استنفر أصحابه لركب قريش ، بادر فبعث ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة ، منذرا ومستنفرا .

وأصبحت مكة ذات يوم ، على صوت ضمضم يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره :

ـ يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ، لا أرى أن تدركوها ، الغوث الغوث !

فكأنما أشعل هناك نارا .

صاحت قريش : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعيرِ ابن الحضرمى؟ كلا والله ليعلمنَّ غير ذلك .

واندفعوا فى حشد هادر مدجج بالسلاح ، صوبَ المدينة !

والجواسيس من يهود ، تلتقط لهم الأخبار(١) !

وعند ماء بدر التقى الجمعان :

---

(١) السيرة : ٢/٢٦٩

المسلمون من المهاجرين والأنصار ، فى ثلاثمائة رجل ومعهم ثلاثة أفراس لا غير . . .

والمشركون فى ألف ، معهم مائة فرس !

هتف رسول الله حين رأى حشدهم الكاثر : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تحادّك وتكذب رسولك . اللهم فنصرَك الذى وعدتنى . اللهم أَحنِهم الغداةَ » .

« ثم إنه أَخذ حفنة من الحصباء ، فاستقبل قريشا بها وقال : شاهت الوجوه . ثم نفحهم بها وقال لأَصحابه : شدوا » .

وشدوا ، والتحم الفريقان . .

وهزمت القلة المؤمنة ، الكثرة الكافرة . . .

وفرت فلول قريش إلى مكة ، بعار الهزيمة ، وقد تركت السادات والأَشراف من طواغيتهم ، صرعى مجندلين حول ماء بدر .

وتركت أَسراها ، فى مدينة الرسول ! وتعالى هتاف النصر يدوى فى المدينة ، فرج صروح الوثنية فى أُم القرى . .

ورج حصون اليهودية ، فى يثرب وما حولها من مستعمرات يهود ، شمال الحجاز .

* * *

لم يشترك اليهود فى صد الجيش الذى جاءت به الوثنية من مكة .

وكان العهد بينهم وبين الرسول ، وفيه النص الصريح :

« وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على مَن حارب أَهل هذه الصحيفة . . . وإن بينهم النصر على مَن دهم يثرب » .

فإذا تعللوا ــ كما يقول مؤرخهم ولفنسون ــ بأن الموقعة خارج نطاق المدينة «ولم يكن الرسول مشترطا عليهم فى المعاهدة أن يشتركوا فى الغزوات الخارجة عن دائرة المنطقة اليثربية »[1] .

فبم يبررون نقض ميثاقهم . فى «أن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة » ؟ .

إنه الغدر !

وقد تمنوا أن ينهزم الرسول والمؤمنون ، وخابت أمانيهم .

«وأصبح المسلمون بعد هذا الظفر العظيم ، أصحاب الأمر والنهى فى مدينة يثرب » [1] .

* * *

وأدركت يهود ، كما لعلها لم تدرك من قبل ، أن دورها قد حان ، لتكفر عن كل ما اقترفت من آثام . . .

ومؤرخهم «إسرائيل ولفنسون » ينسى كل ما كان ، ويحدد يوم بدر ، بداية لاتجاه المسلمين إلى القضاء على اليهود ، ويتوقع من ذلك اليوم ، مصيرهم المحتوم . .

لأنه يعلم أن قومه لا يمكن أن يدخلوا فى صدام مسلح ، وإنما حسبهم أن يحاربوا بأسلحة الشر والفتنة والعداوة والحقد .

كانوا كما يقول : « يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاصمات لأن السلام والسكينة أساس النجاح فى الأعمال التجارية والصناعية »[2] .

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٢٧

(٢) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٢٦

فإذا فرض عليهم المسلمون القتال ، فلا مفر أمامهم إلا الاستسلام الذليل المقهور ، أو الجلاء . . .

نسى كل ذلك الشغب الذى أثاره أحبارهم بجدلهم العقيم يريدون به إعنات الرسول وفتنة الأنصار ، ونسى مسعاهم بالوقيعة والفتنة وتهييج أحقاد «بعاث» بين الأوس والخزرج ، ونسى تدسسهم إلى البيئة الإسلامية يحاولون أن يفتنوا المسلمين عن دينهم ، ونسى ما تسرب منهم إلى نفوس بعض الضعاف من عدوى النفاق . . .

بل نسى كذلك ما طالما تحدث عنه من وئام وألفة بين اليهود والعرب.

ونسى معه نقض اليهود ميثاقهم أن يكونوا « على مَن حارب أهل هذه الصحيفة . وأن بينهم وبين المسلمين النصر على دهم يثرب » .

ومضى يؤرخ بيوم بدر : موقفا جديدا ضد اليهود :

« كان النبي فى أول الأمر يرجو أن يدخل اليهود فى الإسلام بطريق المجادلة والمناقشة ، فلما لم تنجح معهم هذه الطريقة صبر عليهم إلى يوم بدر حيث صارت الظروف ملائمة للدخول معهم فى حرب دموية .

« لذلك ظهرت عند الأنصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية ، حيث صمموا على أحد أمرين : أن يندمج اليهود مع العرب (كأن هذا ممكن؟!) بواسطة اعتناق الإسلام ، أو يحاربوهم أو يجلوهم ...

« وكان المهاجرون ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود فى يثرب ، لأن حالة المهاجرين كانت سيئة جدا ، إذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل ، بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج »(1)

---

(1) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٢٧

كأنه لم يدر أن المهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم فى سبيل الله ، وباعوا أنفسهم لعقيدتهم !

ولو أن الديار والأموال كانت غايتهم ، لبقوا على دين آبائهم وسلمت لهم أموالهم ودورهم .

لكنه معذور !

فما يستطيع مثله أن يتصور الأمر على غير هذا الوجه الذى يربطه بالطمع فى الأموال والمزارع والمنازل !

* * *

ثم فيم خوفه على يهود بعد بدر ...

أو ليسوا كما قال ذوى قوة وبأس شديد ؟

أو ليست لهم «الحصون والآطام أقاموها على قمم الجبال ليتحصنوا بها فى أوقات الحروب حين يغزوهم الأعراب والطامعون فى أموالهم وحاصلاتهم الزراعية ؟ »[1] .

فلنتابع الأحداث .....

---

(١) تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٦ .

الجلاء الأول ... بنو قينقاع

كان غدر اليهود ونقضهم ميثاقهم يوم بدر ، كافيا لأن يأخذهم الرسول صلى الله عليه وسلم بغدرهم . .

لكنه غض عنهم وأملى لهم . . .

وكان يعلم أن وجود بني قينقاع في قلب المدينة بؤرة شر ومصدر خطر .

لكنه اكتفى بالإنذار .

وحين يقتصر الأمر على الإنذار أو ما هو أشد منه ، فإن اليهود تتطاول وتجترئ ، ما دامت السيوف في أغمادها .

بعد غزوة بدر الكبرى ، جمع الرسول يهود المدينة بسوق بني قينقاع ، وقال لهم محذرا ومنذرا :

« يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم » .

فتطاولوا قائلين :

« يا محمد ، إنك ترى أنا قومك ! ــ يعنون أنهم كفء لحربه ــ لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس » .

كذا ؟ انصرف عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوالى النذير من وحي الله :

«قل للذين كفروا ستُغلَبون وتُحشرون إلى جهنمَ وبئس المهاد . قد كان لكم آيةٌ فى فئتين التقتا ، فئةٌ تقاتل فى سبيلِ اللهِ وأخرى كافرة يرونهم مِثليهم رأىَ العين واللهُ يؤيدُ بنصرِه من يشاءُ ، إن فى ذلك لعبرةً لأولِي الأبصار»(١) .

وغدا «بنو قينقاع» إلى سوقهم يأكلون المال ، وما يزالون منتفخين بردهم على إنذار الرسول ، وكأنما أرادوا أن يجربوا قوتهم ، فأحاطوا بامرأة من العرب ، قدمت السوق بجلَب لها فباعته وجلست إلى صائغ يهودى هناك ، فجعل اليهود يريدونها على أمر تكرهه ، فأبت وقامت مولية . وكان الصائغ قد عمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها حين كانت مشغولة بصد اليهود عنها ، فلما قامت انكشفت عورتها فضحكوا بها فصاحت تستصرخ العرب ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودى فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهلُه المسلمين على اليهود فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع» .

وأقبل الرسول فى جمع من الأنصار فحاصر اليهود خمس عشرة ليلة حتى أمكنه الله منهم ونزلوا على حكمه . وعندئذ تقدم المنافق «عبد الله ابن أبى بن سلول» الخزرجى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أحسنْ فى موالىَّ ! – وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج .

فأعرض الرسول عليه الصلاة والسلام عنه وهو ماضٍ فى لجاجته ، حتى ظهر الغضب على وجهه صلى الله عليه وسلم .

وعبد الله لا يكف عن استنقاذهم . قال للرسول :

---

(١) السيرة ٣/٥١ ، وتاريخ الطبرى حوادث السنة الثانية للهجرة . والاقتباس من سورة آل عمران : ١٢ ، ١٣

ـ لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالىّ : أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع تحصدهم فى غداة واحدة ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

ـ هم لك !

واكتفى بأن جردهم من سلاحهم ، وأبقى لهم ذراريهم ونساءهم ، وأمهلهم ثلاثة أيام يجلون بعدها عن المدينة ، فخرجوا منها أذلة مقهورين منكسرين ، ونزلوا بوادى القرى حيث احتفى بهم قومهم هناك .. إلى أن خرجوا جميعا إلى الشام !

وتم جلاء بنى قينقاع عن المدينة فى السنة الثانية للهجرة ، وتطهرت منهم مدينة الرسول بعد أن رزحت زمنا تحت كابوسهم الخانق وبعد أن تسلطوا عليها وهم الأجانب الغرباء ، و « اعتبروها موطنا خالصا لليهود »[1] .

---

(1) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى جزيرة العرب ٨٥

رَأسُ أفْعَى

تجرعت يهود الحجاز ذل جلاء بنى قينقاع عن المدينة ، وطأطأت رءوسها فى هوان ، دون أن يخطر على بالها أن تغضب لهذا الحى من يهود أو تثأر لهم .

وإنما الذى خطر ببالها ، هو أنها لا تزال تملك من أسلحة الغدر والشر ، ما يغنى عن صدام مسلح مع المسلمين .

على أن يبدو انتقامها منهم ، حوادث فردية لا يحتمل كل اليهود إثمها . . .

وانتدبوا « كعب بن الأشرف » للثأر . . .

يطفئ نار حقده على الرسول ، وينعش أمل اليهود فى البقاء .

* * *

كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى يوم بدر ، قد أرسل وافدَيْن من صحابته إلى المدينة ، يعجلان لها البشرى بالنصر العظيم على قريش .

وندب لهذه المهمة ربيبه « زيد بن حارثة » وشاعره « عبد الله ابن رواحة الأنصارى » .

وصكت البشرى مسمع أعداء الله بالمدينة .

قال كعب بن الأشرف وهو يكذب سمعه : «أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يُسَمِّى هذان الرجلان ؟ – يعنى زيدا وابن رواحة – فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ، لبطنُ الأرض خير من ظهرها » .

ثم لما تيقن عدو الله الخبر ، طاف بأحياء المدينة ينشد الأشعار ، محرضا على رسول الله ، وباكيا صرعى بدرٍ من قريش :

طحنتْ رَحى بدرٍ لمهلك أهله ... ولمثل بدرٍ تستهل وتدمع
قُتلت سراةُ الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا إن الملوك تُصرَّعُ
كم قد أصيب به من ابيض ماجد ... ذى بهجة يأوى إليه الضُّيَّع
صدقوا ، فليت الأرض ساعةَ قُتِّلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتُصدَّعُ
نُبئت أن بنى المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبى الحكيم وجُدعوا
وابنا ربيعة عنده ومُنَبه ... ما نال مثل المهلكين وتُبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمى على الحسب الكريمُ الأروعُ

هكذا مدَّ «كعب بن الأشرف» لسانه ..

لكن فى المسلمين شعراء ، يستطيعون أن يقاوموه بسلاح الكلمة فيخرسوه .

رد عليه «حسان بن ثابت» بقصيدة على روى قصيدته ، وكانت أم «كعب» من بنى النضير :

فابكى ، فقد أبكيت عبدا راضعا ... شبه الكُليب إلى الكليبة يتبع
ولقد شفى الرحمن منا سيدا ... وأهان قوما قاتلوه وصُرعوا
ونجا وأفلت منهم مَن قلبُه ... شعفٌ يظل لخوفه يتصدع[1]

وردت على «كعب» شاعرة من بَلِي ، اسمها «ميمونة بنت عبد الله» :

تحنَّن هذا العبد كل تحنن ... يُبكِّى على قتلى وليس بناصب

(١) السيرة لابن هشام : ٣/٥٧

بكت عينُ من يبكى لبدر وأهله وعُلت بمثليها لؤىٌّ بن غالب
فليت الذين ضرجوا بدمائهم يرى ما بهم ، من كان بين الأخاشب
فيعلم حقا عن يقين ويبصروا مَجَرّهمُ فوق اللحى والحواجب(١)

لكن عدو الله ، أطلق لسانه المسموم يشبب بالحرائر الكريمات ، نساء المسلمين .

وقال فيما قال ، مشببا بأُم الفضل ، زوج العباس بن عبد المطلب ، عم النبى :

أراحلٌ أنت لم ترحل لمنقبة وتاركٌ أنت أُمّ الفضل بالحرمِ ؟

ثم رأى سلاحه مفلولا ، « قواطأ يهودَ على أن يدعو – أبعدُهم عن الريبة – النبى على طعام ، فإذا حضر فتكوا به » (٢) .

وعندئذ ، حان العقاب حسما لهذا الشر .

سأل الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه : من لى بابن الأشرف ؟

أجاب محمد بن مسلمة الأنصارى :

– أنا لك به يا رسول الله .

وانضم إليه أربعة من الأنصار ، فيهم أبو نائلة سلكان بن سلامة ، من بنى عبد الأشهل ،

وذهبوا إلى عدو الله فى بيته ، وكان حديثَ عهد بعرس ، قد تزوج بنت أبى الحقيق من رءوس اليهود .

ونادوه ، فتوجست عروسه شرا ، لكنه خرج إليهم ، وهو يقول لبنت أبى الحقيق مدلا بشجاعته : لو دُعى الفتى لطعنة لأجاب !

---

(١) السيرة لابن هشام : ٥٧/٣
(٢) السمهودى : وفاء الوفا : ٢/١١

وتحدثوا إليه ساعة ، يساومونه على أن يبيعهم طعاما ، بربا مضاعف، وسقًا بوسقين ، وله ما شاء من رهن . سألهم الخبيث : أترهنونى نساءكم ؟

أجابوا فى إنكار : كيف ؟ هذا العارُ . . .

وعاد يسأل : فهل ترهنونى أبناءكم ؟

ردوا غاضبين : ويذهبون بعار الدهر ؟

ثم اقترحوا عليه أن يرهنوه سلاحهم !

وإنما أرادوا بذلك ، ألا يستريب بهم حين يظهرون السلاح .

وقبل الملعون ، ووثبوا عليه فقتلوه !

وعادوا إلى رسول الله آخرَ الليل وهو قائم يصلى ، فأخبروه بقتل عدو الله .

قال ابن اسحاق فى السيرة ، رواية عن محمد بن مسلمة الأنصارى :

« فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله ، فليس بها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه » (١) .

* * *

(١) السيرة : ٦٠/٣ ، وصحيح البخارى : ١١٥/٢

أُحُد

وتتابعت أحداث فردية ، تعكس صدى الرعب فى قلوب يهود لكنها لم تلبث أن لفتها دوامة المعركة العنيفة فى أُحد . . .

ولم تكن المعركة مفاجأة غير متوقعة ، فما كانت قريش لتسكت على ثأرها فى بدر ، كما سكتت يهود على إجلاء بنى قينقاع . .

« خرجت قريش بحدِّها وجَدِّها وحديدها وأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تِهامة .

« وأخرجوا معهم نساءهم ، التماس الحفيظة ، وعلى الجيش أبو سفيان ابن حرب الأموى العبشمى ، معه زوجته هند بنت عتبة » تكاد تجن غيظا على قتلاها ببدر : أبيها عتبة ، وأخيها الوليد ، وعمها شيبة .

ونزل الجيش الزاحف على شفير الوادى مقابل المدينة .

وخرج الرسول والمسلمون من المهاجرين والأنصار ، للقاء جيش المشركين ، فعسكروا بالشعب من أُحد والتحم الجيشان .

وهند بنت عتبة فى نسوة قريش يضربن الدفوف على صوت هند :

ويها عبد الدارْ ويهاً حماةَ الأدبار
ضربا بكلْ بتارْ

إن تقبلوا نعانقْ ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وحين بدا النصر للمسلمين لا شك فيه ، وولت قريش الأدبار عن معسكرها ، وتركت لواءها صريعا قد قتل عنه آخرُ مَن حمله منهم ،

حتى تقدمت «عمرة بنت علقمة الحارثية» فأخذت اللواء فكانت هى التى رفعته لقريش ، حين تغير وجه المعركة ،

مالت رماة المسلمين إلى معسكر قريش الذى ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لخيل المشركين التى لاحت لها الفرصة فكرت على المسلمين من حيث انكشفوا .

وصاح صائح : ألا إن محمدا قد قتل .

فما بلغت الصيحة سمع المسلمين الذين دهمتهم الخيل ، حتى تصدعت صفوفهم وابتدروا الطريق إلى المدينة ، والعدو يمعن فيهم ضربا . .

والرسول حيث هو صامد فى مكانه من الميدان ، «قد كسرت رَباعيته وشُج فى وجهه وجرحت شفته السفلى ، ودخلت حلقتان من حلق مِغفر - درع للرأس - فى وجنته» .

وحوله صلى الله عليه وسلم ، قلة معدودة من الأنصار ، تقاتل عنه رجلا رجلا حتى استشهدوا عن آخرهم . وغير بعيد منه ، رجل من المشركين يصيح : «دلونى على محمد فلا نجوتُ إن نجا» فيتصدى له مصعب بن عمير وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، يعترضان طريقه إلى الرسول .

وأحس بعض مَن فى الميدان من المسلمين بما هناك ، فصوب «كعب ابن مالك» بصره ، فلمح الرسول وعرفه ، ونادى بأعلى صوته :

- يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فتدافع المسلمون من كل صوب ، فخافت قريش أن تدور عليها الدائرة ، وانسحبت مكتفية بما اختطفت من نصر ، وقائد جيشها «أبو سفيان» يملأ الفضاء العريض بصوته :

- يوم بيوم بدر .. وإن موعدكم بدر ، للعام القابل .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه : «قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد»(١) .

وفرغ المسلمون لقتلاهم الشهداء ، وفيهم حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله ، قد صوب إليه «وحشى» حربته على غرة منه ، يشترى به حريته ، ومعها حلى «هند بنت عتبة» التى استبدلت بها أذنى الشهيد فجعلتهما قرطين لها !

وتجاوبت أرجاء المدينة ومكة ، بأصداء المعركة ، فى نقائض الشعراء من الفريقين .

المشركون بمكة ، يهزجون بقصيدة عبد الله بن الزبعرى السهمى - ولم يكن قد أسلم بعد :

يا غراب البين أسمعتَ فقلْ	إنما تنطق شيئا قد فُعل
إن للخير وللشر مدى	وكلا ذلك وجه وقَبَل
أبلغا حسانَ عنى آية	فقريض الشعر يشفى ذا الغُلَل
كم ترى بالجر من جمجمة	وأكُفٌّ قد أُتِرَّت ورِجِلْ
وسرابيلَ حسانٍ سُرِيَتْ	عن كماةٍ أهلكوا فى المنتزلْ
كم قتلنا من كريم سيد	ماجد الجدين مقدام بَطلْ
صادق النجدة قَرْمٍ بارع	غير ملتاثٍ لدى وقع الأَسَلْ
ليت أشياخى ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأَسلْ
حين حكّت بقُباء بركها	واستحر القتل فى عبد الأَشل
فقتلنا الضِّعفَ من أشرافهم	وعدلنا مَيْلَ بدرٍ فاعتدل

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٠٠/٣

فيجيبه ، من حزب الله ، صوت حسان بن ثابت شاعر الرسول

ذهبت يا ابن الزبعرى وقعة | كان منا الفضل فيها لو عَدَل
ولقد نلتم ونلنا منكمُ | وكذاك الحرب أحيانا دُوَل
نضع الأسياف فى أكتافكم | حيث نهوِى عللا بعد نَهلْ
إذ تولُّون على أعقابكم | هُرَّبا فى الشِعب أمثالَ الرِسِلْ
إذ شددنا شدة صادقة | فأجأْناكم إلى سفح الجبَل
وتركنا فى قريش عورة | يوم بدر ، وأحاديث المَثَلْ

والأصداء تتلاقى وتتصادم ، من هنا ومن هناك ، وفيها دوى الصراع بسلاح الشعر . .

ويهود . . تصغى وتترقب

* * *

بَنُو النّضِير

يهود ؟ أين هى من المعركة التى دارت فى أحد فى شوال من السنة الثالثة للهجرة ؟

نقضت ميثاقها مع الرسول مرة ثانية ، ولم « تكن على النصر ضد من حارب أهل هذه الصحيفة » .

وبنو النضير منهم بخاصة ، كانوا فى منطقة المدينة .

والجيش الزاحف ، كان قاصدا إلى المدينة . .

وقد انكمشوا فى أوكارهم ينتظرون على من تدور الدائرة

وكان عذرهم فى نقض ميثاقهم هذه المرة :

«إن موقعة أُحُد قد كانت فى يوم سبت . فأبى اليهود أن يحملوا السلاح فى ذلك اليوم ، ورفضوا الاشتراك مع الرسول فى غزوة أُحد معتمدين على أن المعاهدة التى كانت بينهم وبين النبى تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التى تقع بعيدا عن المدينة »(١) .

* * *

وأمهلهم الرسول . . .

ولعله لو خُير بين خروجهم معه فى أُحد ، وبين قعودهم ، لكان بحيث يختار ألا يندسوا فى الجيش المجاهد ، عنصرَ فتنة وتخذيل ، لا يألونهم خبالا . . . .

---

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود ١٢٢

واطمأنت يهود إلى ما لقى المسلمون فى أحد ، فأرهفت أسلحة شرها :

خرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بنى النضير ، فى السنة الرابعة للهجرة ، يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر ، قتلهما عمرو بن أمية الضمرى .

وكان الرسول قد عقد لهما جوارا .

وكان بين بنى النضير وبنى عامر ، عَقد وحِلف .

«قالت يهود :

– نعم يا أبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه .

«ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه – ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جِدار من بيوتهم قاعد – فمَن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ » [1] .

حيلتهم القديمة ، وسلاحهم الذى لا يحسنون سلاحا غيره .

وكما حدث فى المرة الأُولى ، صعد يهودى فألقى الصخرة ، لكن بعد أن كان الرسول قد تحرك من مكانه .

ولم تزده صلى الله عليه وسلم فعلتُهم بغدرهم علما .

لكنها زادته تصميما على حسم شرهم .

* * *

أقبل عليه الصلاة والسلام فدخل المدينة ، واجتمع إليه أصحابه فأخبرهم بما كانت اليهود أرادت من الغدر به .

وأمرهم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم . . .

---

(١) السيرة : ٣/١٩٩

وساروا حتى بلغوا حى بنى النضير ، فتحصن اليهود من النبي فى الحصون .

وشد الرسول الحصار عليهم . وأمر بقطع النخيل وإحراقها .

نادوه من وراء الجدر :

ــ يا محمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه : فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟

هكذا كانوا يناهون على غدرهم ، مطمئنين إلى سلامة ديارهم وزروعهم ، بما أثر عن النبي من نهى عن الفساد !

وفاتهم ، أن تخريب دورهم وتحريق زروعهم . تطهير وإصلاح !

ولم يستغرق الحصار سوى ست ليال ، من ذلك الشهر : ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة(١) .

وأصدر عليه الصلاة والسلام حكمه عليهم بالجلاء . . فتضرعوا إليه ، أن يدعهم يذهبون بما حملت الإبل .

وسمح لهم بها الرسول المنتصر . . . .

ومضوا بالنساء والأولاد وما حملت الإبل من مال ومتاع ، فأووا إلى عشيرتهم فى خيبر .

فيقال إنهم كانوا ينزعون الأخشاب من دورهم ليحملوها معهم ، فى ضغطة الحشر .

وصدق الله تعالى :

«هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول

---

(١) كذا فى السيرة : ٢٠٠/٣ وقال بعضهم انها كانت فى السنة الثالثة . انظر وفاء الوفا للسمهودى : ٢٩٧/١

الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهُم حصونُهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتَهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أُولى الأَبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأَنهم شاقُّوا الله ورسولَه ومن يشاقِّ اللهَ فإن الله شديدُ العقاب . ما قطعتم من لِينةٍ أَو تركتموها قائمة على أُصولها فبإذن الله وليخزىَ الفاسقين »[1] .

* * *

---

(1) سورة الحشر .

تم جلاء بنى النضير

وشغل الرسول صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لقريش ، حيث تواعدوا يوم أُحد ، على اللقاء فى بدر .

وفى شعبان ، سنة أربع ، خرج الرسول إلى بدر لميعاد أبى سفيان ، فعسكر هناك . .

وأقام ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان ، وكان قد خرج فى أهل مكة حتى نزل مَجنة ، من ناحية الظهران .

ثم جاء الخبر ، أن جيش المشركين نكص راجعا إلى مكة .

وقيل إن أبا سفيان حين بدا له فى الرجوع قال لقومه :

ـ يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب . . .وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا . . .

ورجعوا ، وعيرتهم مكة بأنهم «جيش السويق» يقولون لهم : إنما خرجتم تشربون السويق !

وسلقتهم المدينة بألسنة حداد ، فيقول كعب بن مالك الأنصارى :

وعدنا أبا سفيانَ بدرًا فلم نجد ... لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأُقسم لو وافيتنا فلقيتنا ... لأُبت ذميا وافتقدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه ... وعمرا أبا جهل تركناه ثاويا

وقال حسان بن ثابت يحذرهم أن يسلكوا الطريق إلى الشام :

دَعُوا فلَجاتِ الشام قد حال دونها ... جلادٌ كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربِّهم ... وأنصاره حقا وأيدى الملائك

إذا سلكتْ للغَوْرِ من بطن عالج ... فقولا لها : ليس الطريق هنالكِ

أَقمنا على الرسِّ النزوع ثمانيا ... بـأَرعنَ جرارٍ عريض المبارك

فأَبْلغ أبَا سفيان عنى رسالة ... فإنك من غُر الرجال الصعالك[1]

وقريش هنالك تجرع غصة القهر ، وتفكر فى وسيلة للنيل من المسلمين ، فلا ترى أملا فى غير أفاعى اليهود المنبثة فى معاقل الإسلام بالمدينة وشمال الحجاز . . .

* **

(1) السيرة لابن هشام : ٢٢١/٣

المُؤامَرةُ الكُبْرَى

مضت الأشهر الحرم من السنة الرابعة للهجرة، ولا حديث للمسلمين في المدينة والمشركين في مكة ، إلا عار الجيش الذى رجع به أبو سفيان ، وهو الذى واعد المسلمين في أُحُد ، أن يلقاهم في بدر ، ليثأر لقتلى قريش بها .

أما اليهود ، فكان لهم ما يشغلهم ، بعد أن شهدوا نكوص قريش وإخلافها ميعادها مع المسلمين ببدر . .

كانت ترسم خطة المؤامرة الكبرى التى تَعلّق بها رجاؤها في الانتقام من محمد الذى انتزع منهم مُلك المدينة ، وهدد وجودَهم كله بالخطر ، وأهاج فيهم ذكرياتِ تشردهم وهروبهم من أرض إلى أرض ، كأن ليس لهم في الدنيا مكان . . .

وبعثوا رءُوس عصابتهم إلى مكة ، يدعون الوثنية القرشية لحرب دين التوحيد الذى زعموا أنهم مهدوا له أرض الحجاز !

وقالوا لقريش :

ـ دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه !

ثم زادوا : حاربوه ونحن معكم . .

ولما اطمأنوا إلى سريان سمهم في قريش ، «وسرهم أن الوثنيين نشطوا لما دعوهم إليه من حرب الرسول ، فاجتمعوا لذلك واتعدوا له . . .

«خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءُوا غطفان ، من قيس وعيلان ،

فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه ، وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه »[1] .

وتسلل أفاعى اليهود عائدين إلى أوكارهم فى شمال الحجاز .

ومن ورائهم جيش المشركين فى طريقه إلى المدينة : قريش وعليها أبو سفيان بن حرب ، وغطفان وعليها : عيينة بن حصن قائدا لبنى فزارة ، والحارث بن عوف قائدا لبنى مرة ، ومِسعَر بن رُخيلة قائدا لمن تابعه من بنى أشجع بن ريث الغطفانى .

وسمع الرسول صلى الله عليه وسلم بخروج الجيش الزاحف من مكة ، فأخذ يستعد للقائهم . وإذ بدا له وجوب تحصين المدينة ؛ بحفر خندق حولها بمشورة أبى سلمان الفارسى ، دعا المسلمين إلى العمل فيه التماسا للثواب ، فلبى دعوته المؤمنون حقا ، وتقاعد المنافقون الذين أشربتهم يهود سم النفاق ، فكانوا يشاركون فى الحفر مشاركة هينة ، بالقدر الذى يستر نفاقهم ، فإذا لاحت فرصة تسللوا إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ولا إذن .

ورغم تخاذل المنافقين ، فرغ المؤمنون من حفر الخندق قبل أن يصل الجيش الزاحف . .

وأقبلت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، وعسكروا هناك تجاه المدينة .

وخرج الرسول فى ثلاثة آلاف من المسلمين لا يزيدون ، فعسكر بهم وظهورهم إلى جبل سلع ، والخندق بينهم وبين أعدائهم . .

---

(1) السيرة لابن هشام : ٣/٢٢٤

واليهود فيما يبدو للمسلمين ، قد انكمشوا فى حصونهم وآطامهم بخيبر وقريظة فى انتظار أن تنجلى المعركة ، بعد أن تحصد الآلاف من هؤلاء العرب !

لكن الخبر لم يلبث أن ذاع فى معسكر المسلمين : لقد تآمرت يهود خيبر بالرسول ونقضوا عهده ، وانحازوا إلى الأحزاب !

وذهب «حيى بن أخطب» إلى كعب بن أسد القرظى ، صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم ، «فلم يزل ابن أخطب يفتله فى الذروة والغارب ، حتى ضمه إلى الأحزاب فى حربها للمسلمين . بعد أن عاهده ابن أخطب : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا ، لأدخلن معك فى حصنك حتى يصيبنى ما أصابك»(١) .

وأراد الرسول أن يستوثق من الخبر ، فما عهد اليهود تدخل حربا بالسلاح . . .

لقد نقضوا ميثاقهم فى بدر وفى أحد ، لكنهم لم يبرحوا أوكارهم بعيدا عن المعركة . . .

فهل تبلغ بهم الخيانة أن يسفروا عن خبثهم وغدرهم ، ويكونوا مع الأحزاب على «أهل هذه الصحيفة» ؟!

بعث الرسول سيد الأوس «سعد بن معاذ» وسيد الخزرج «سعد ابن عبادة» ليستطلعا أمر اليهود . فانطلق السعدان حتى بلغا مجتمع اليهود «فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم»(١) .

وجهروا بالغدر فقالوا :

ـ مَن رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد(١) .

---

(١) بنصه ، من حديث ابن إسحاق فى السيرة : ٢٣٢/٣ وما بعدها

فشاتمهم سعد بن معاذ ، وكان رجلا فيه حدة ، وشاتموه ، لكن سعد ابن عبادة ، حجزه عنهم قائلا :

« دع عنك مشاتمتهم ، فما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة » .

وعاد السعدان إلى معسكر المسلمين ، بخبر الغدر قد تأكد . .

* * *

ودارت المعركة ، رميًا بالنبل عبر الخندق . .

« وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف ، وقد أتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المسلمون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى إن أحدهم ليقول : كان محمد يعدنا كنوز قيصر وكسرى ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط . وتقدم أوس بن قيظى فقال : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو ، فأْذَنْ لنا أن نخرج فنرجع إليها فإنها خارج من المدينة .

وثبت المؤمنون مع قائدهم الرسول ، والمشركون يحاصرونهم ، بضعا وعشرين ليلة ، لم يكن بين الفريقين إلا الرمى بالنبل والحصار » .

وبدا للرسول القائد ، أن يحتال على الموقف بعد أن اشتد بالمسلمين جهد الحصار ، فتشاور مع قادة كتائبه أن يبعث إلى قائدى غطفان ، يخذلهما عن قريش ، ولهما ثلث ثمار المدينة إن رجعا بمن معهما . وكانت يهود قد وعدت غطفان أن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع خيبر وبساتينها .

سأله السعدان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة :

ـ يا رسول الله ، أمرًا تحبه فنصنعه ، أم شيئا أمرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئا تصنعه لنا ؟

أجاب عليه الصلاة والسلام :

- بل شيء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

قال سعد بن معاذ :

- يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرًى أو بيعا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزّنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

واستجاب الرسول لمشورة صاحبه سعد ، فدفع له الكتاب الذى كان مُعَدا للاتفاق مع قائدى غطفان ، وقال له :

- أنت وذاك .

فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها ، ثم قال : ليجهدوا علينا (١) .

* * *

كان مشروع الاتفاق بين الرسول وبين غطفان ، قد شاع إثر مرحلته الأولى ، فى المفاوضات التى تبودلت بين الفريقين تمهيدا للعقد الذى لم يتم ، فبدت الأحزاب ترتاب ، ويتوجس كل حزب منها خوفا من الآخرين .

---

(١) السيرة : ٣/٢٣٤ . وقابله على ما فى « تاريخ اليهود ولاسرائيل ولفنسون : ص ١٤٥ وما بعدها

فى الوقت الذى يلغت فيه المعركة ذروتها ، وخيلُ المشركين قد اقتحمت مكانا ضيقا من الخندق ، فجالت بهم بينه وبين سلع .

ونعيم بن مسعود الأنصارى ، قد استأذن الرسول فى أن يمضى إلى الأحزاب مخذلا ، والحرب خدعة ـ وكان حديث عهد بالإسلام ، لم يعلم القوم بإسلامه بعد .

وبدأ ببنى قريظة ، وكان نديما لهم فى الجاهلية . وفى يقينه أنهم جرثومة الشر .

قال لهم :

ـ قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم .

قالوا :

ـ صدقت ، لست عندنا بمتهم .

ونفذ إليهم من نقطة الضعف فيهم ، قال :

ـ إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره . وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم . فإن رأوا نهزة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه .

قالت يهود : لقد أشرت بالرأى ! (1) .

وانطلق نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من زعماء قريش :

---

(1) السيرة لابن هشام : ٣/٢٤١

ـ قد عرفتم ودى وفراق محمدا ، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت علىّ حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى . تعلّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان ، رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم ؟ وقد قبل محمد منهم ، فإن بعثتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا .

ثم خرج فأتى غطفان ـ وكان نسبه فيهم : جده الأعلى أشجع بن ريث ابن غطفان ـ قال :

ـ يا معشر غطفان ، إنكم أصلى وعشيرتى وأحب الناس إلى ، ولا أراكم تتهمونى .

قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم .

فألقى إليهم حكايته عن بنى قريظة وحذّرهم ما حذر قريشا ، وسألهم أن يكتموا عنه .

ونفذ السهم :

أمسى الأحزاب ليلة السبت من شوال سنة خمس ، فأرسل أبو سفيان ورءوس غطفان « عكرمة بن أبى جهل » فى نفر من قريش وغطفان إلى بنى قريظة ، قالوا لهم :

ـ إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، وقد آن لنا أن نفرغ من الأمر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه .

قالت يهود : إن غدا يوم سبت ، لا نعمل فيه شيئا ، ولسنا مع ذلك بالذى نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رُهُنا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة

لنا حتى نناجز محمدا ، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه !

عندئذ أدركت قريش وغطفان أن ما قاله نعيم بن مسعود حق ، وأرسلوا إلى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فقاتلوا ، وإلا فإنه الغدر .

وتصدعت الأحزاب . .

واشتد ليل الشتاء عليهم وهبت الريح عاتية فجعلت تكفأ قدورهم وتطفئ نارهم وتقوض معسكرهم .

ومئونتهم تنفذ . . . .

وبينهم وبين دورهم ، بعيد بعيد . . .

قال أبو سفيان :

«يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام : لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترون : ما تطمئن لنا قِدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإنى مرتحل . . »

ولم يتلبث ، ينتظر ردا . . .

قام إلى جمله وهو معقول ، فأطلق عقاله ووثب عليه . . .

وماجت الصحراء بالآلاف المنسحبين من قريش

واضطربت غطفان ، وقد رأت ما فعلت قريش . . .

وانثالت ألوفهم ، تلتمس طريق الرجوع !

وأصبح الصباح ، فرأى الرسولَ صلى الله عليه وسلم والمسلمين فى فى المدينة ، قد وضعوا السلاح وهموا باستئناف حياتهم المألوفة . . .

غير أنها لم تك سوى ساعات معدودات فحسب ، ثم عادوا إلى سلاحهم وتشمروا للجهاد . .

بنو قريظة

فى ساعة الظهيرة من ذلك اليوم الذى انتهت فيه غزوة الأحزاب .

وإذ كان المسلمون فى دورهم قد اطمأن بهم المقام بعد أن عانوا الشدة والبلاء والحصار المنهك . .

علا من مسجد الرسول فى المدينة ، صوت المؤذن :

ـ أيها الناس ، من كان سامعا مطيعا فلا يصلينّ العصر إلا فى بنى قريظة . .

فلم تكد أرجاء المدينة تتجاوب بالأذان ، حتى تدفقت الجموع الحاشدة ، إلى موعد الرسول : صلاة العصر فى بنى قريظة . . .

وفى الطليعة ، سار «على بن أبى طالب» براية الرسول إلى بنى قريظة ، فما كاد يدنو من حصونها حتى سمع من لغط اليهود ما جعله يبتدر الطريق إلى رسول الله ويقول :

ـ يا رسول الله ، لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث .

سأله الرسول :

ـ لم أظنك سمعت منهم لى أذى ؟

وتابع رسول الله سيره إليهم ، وهو يقول لابن عمه وحامل رايته :

ـ لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا . .

ودنا من حصونهم التى ظنوا أنها ما نعتهم من الله ، فقال لهم :

ـ هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

فأجابوا فى ضراعة ، من وراء الجدر :

ـ يا أبا القاسم ، ما كنتَ جهولا .

وصلى المسلمون العصر فى بنى قريظة . . .

وأقاموا هناك ينتظرون أن يخرج اليهود الأخابث الجبناءُ من حصونهم لقتال . . .

ولا قتال . . . .

ودام الحصار خمسا وعشرين ليلة ، بنى قريظة فيها مما قذف الله فى قلوبهم من الرعب ، أشد مما نالهم من إجهاد الحصار . .

وبعثوا إلى رسول الله يضرعون إليه أن يبعث إليهم « أبا لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه فى أمرهم » وكان أبو لبابة من بنى عوف ، حلفاء الأوس . ولليهود ماضيهم فى مظاهرة الأوس على الخزرج .

وبعث إليهم الرسول أبا لبابة ، فكان من خُبث حيلتهم ، استدرارا لعطفه ، أن قام إليه الرجال ضارعين ، « وجهش إليه النساء ، والصبيان يبكون فى وجهه » فأحس شعورا من الرقة جعله يمضى إلى رسول الله تائبا ، وقد عاهد الله : أن لا يطأ بنى قريظة أبدا ! (١)

وأصبحوا فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وطلبت الأوس أن يكون لها فى مصير بنى قريظة رأى ، إذ كانوا حلفاءهم فى الجاهلية .

قال الرسول :

ـ ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

أجابوا : بلى يا رسول الله .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣/٥٤ ـ السنة الخامسة من الهجرة

وقال الرسول ، تاركاً الحكم لسعد :

ـ فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكذلك رضى اليهود أن ينزلوا على حكم ابن معاذ ، والتمسوه حيث كان فى خيمة أعِدَّت للجرحى ، فدعوه إلى ما اختاره له رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وقد حاول بعض منافقى الأوس أن يأخذوه بالرفق بأعداء الله والرسول . قالوا : يا أبا عمرو ، أحسِنْ إلى مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولَّاك ذلك لتحسن إليهم .

فلما أكثروا عليه ردهم قائلا : آنَ لسعدٍ أن لا تأخذه فى الله لومة لائم ! (١)

ونطق سعد بحكمه الصارم العادل على رجال بنى قريظة ، دون النساء والصبية (٢) .

جزاء وفاقا ، على ما كان من غدرهم ، واستئصالا لجرثومة ظلت تنفث الوباء فى المنطقة الإسلامية .

وحسما لشرهم الوبيل . . .

وكان المصطفى عليه الصلاة والسلام ، حين أنفذ فى بنى قريظة حكمَ « سعد بن معاذ » على العهدِ به حلما وتسامحا . جاءه « ثابت بن قيس الخزرجى الأنصارى » يستوهبه دم « ابن باطا » اليهودى ، حين استجار به وذكَّره بمِنَّةٍ كانت له عليه يومَ بعاث . فاستجاب المصطفى ووهب صاحبه دمَ « ابن باطا » . قال الملعون مستعطفا :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥٥/٣

(٢) لم تقتل سوى امرأة واحدة ، لها خبر مفصل فى تاريخ الطبرى : ٥٧/٣

- شيخ كبير ، لا أهل له ولا ولد ، فما يصنع بالحياة ؟

وذهب « ثابت » إلى المصطفى ، فوهبه أهله وولده .

لكن اليهودى ما لبث أن قال لمجيره :

- أهل بيت بالحجاز ، لامال لهم ! فما بقاؤهم ؟

وعاد ثابت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوهبه كلَّ ماله .

عندئذ تلكأ اللعين يسأل عن قتلى بنى قريظة ويرثيهم ، ويقول لثابت بن قيس :

- أسألك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتَنى بهؤلاء الأحبة ، فما فى العيش بعد هؤلاء من خير !

وما قصد الخبيث إلا أن يبرر بكاءه على رءوس عصابته ، ويمضى فى ذكر مناقبهم !

لكن الحيلة لم تجز على ابن قيس رضى الله عنه .

وللمرة الرابعة ، أجاب ابنَ باطا إلى ما طلب ! (١)

وذهبت بنو قريظة ، قصة ومثلا .

وتجاوبت الجزيرة بأصداء القصائد التى قالها الشعراءُ فيهم وفيمن حزبوا من الأحزاب على المسلمين .

والرسول يتلو من وحى ربه ، من سورة الأحزاب :

«يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجرَ

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥٧/٣

وتظنون باللهِ الظنونا * هنالك ابتُلِي المؤمنون وزُلزلوا زلزالا شديدا *
وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرضٌ ما وعَدَنا اللهُ ورسوله إلا غرورا *
وإذ قالت طائفة منهم يا أهلَ يثربَ لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأْذن فريقٌ
منهم النبيَّ يقولون إن بيوتَنا عورة وما هى بعورةٍ إن يريدون إلا فرارا *
ولو دُخِلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنةَ لأَتوها وما تلبثوا بها إلا
يسيرا * ولقد كانوا عاهدوا الله من قبلُ لا يُوَلُّون الأَدبارَ وكان عهدُ اللهِ
مسئولا * قل لن ينفعَكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ وإذًا لا تُمَتّعون
إلا قليلا * قل من ذا الذى يعصمكم من اللهِ إن أراد بكم سوءًا أو أراد بكم
رحمةً ، ولا يجدون لهم من دونِ اللهِ وليًّا ولا نصيرا * قد يعلم الله المعوقين
منكم والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا ، ولا يأْتون البأْس إلا قليلا * أشحةً
عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينُهم كالذى يُغشَى
عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنةٍ حداد ، أشِحَّةً على
الخير ، أُولئك لم يؤمنوا فأَحبط. الله أعمالهم وكان ذلك على اللهِ يسيرا *
يحسَبون الأَحزابَ لم يذهبوا وإن يأْتِ الأَحزابُ يودوا لو أنهم بادون
فى الأَعرابِ يسأَلون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا *
لقد كان لكم فى رسول الله أُسوةٌ حسنة لمن كان يرجو الله واليومَ الآخرَ
وذكر اللهَ كثيرا . ولما رأى المومنون الأَحزابَ قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسولهُ
وصدق اللهُ ورسولهُ ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رجالٌ صدقوا
ما عاهدوا اللهَ عليه فمنهم من قضى نحبَه ومنهم من ينتظر وما بَدلوا تبديلا *
ليجزىَ اللهُ الصادقين بصدقِهم ويعذبَ المنافقين إن شاء أو يتوبَ عليهم
إن اللهَ كان غفورا رحيما * وردَّ اللهُ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا
وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ ، وكان الله قويا عزيزا * وأنزل الذين ظاهروهم

من أهلِ الكتابِ من صياصيهم وقذف فى قلوبِهم الرعبَ فريقا تقتلون وتأسِرون فريقا * وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالَهم وأرضا لم تطئوها ، وكان اللهُ على كلِّ شيء قديرا » .

صدق الله العظيم

* * *

ويعلق مؤرخهم « إسرائيل ولفنسون » على غزوة بنى قريظة :

« ومهما يكن من شيء فقد قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود فى يثرب ، وقد كان القضاءُ التام على اليهود هو رائد الأوس والخزرج منذ الساعة الأولى لمجاورتهم لهم فى يثرب ، وقد بذلت فى هذا السبيل جهودا عظيمة فى فترات مختلفة ولم توفق ، حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم وأطماعهم السياسية فى وقت كانت خامدةً فيه تلك الآمال » (١) .

ونسى سليل اليهود ، ما تغنى به من وئام وسلام بين اليهود وعرب يثرب !

واستطرد يبكى على ما لحق بيثرب من تدهور شديد بعد خروج اليهود منها ، أثر فى حياتها حتى انتهى بها إلى اضمحلال ذكرها فقال :

«تدهورت شئونها التجارية والصناعية تدهورا شديدا ، ولو لم يكن بهذه المدينة ضريح الرسول ، ولو لم تكن عاصمة الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين لما كان ليثرب شأن يذكر بعد تلك الحوادث فى الجزيرة العربية . وقد اضمحل شأن هذه المدينة بعد عصر الخلفاء الراشدين ، ولم تعد إليها مكانتها القديمة من الوجهة التجارية والصناعية » . (٢)

(١،٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب : ١٥٢

فليكن بكاؤه على اليهود الذين طرأوا على يثرب فجعلوها «مدينة خاصة بهم» .

وليدعْ بكاءه على المدينة التى ظلت حتى اليوم ، وإلى الأَبد ، إحدى العاصمتين الكبريين للإسلام .

وإليها ، حتى اليوم وإلى الأَبد ، تسعى وفود الحجيج كل عام من شتى أَنحاء الأَرض ، لزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فى مثواه بدار هجرته .

* * *

أذناب الأفاعي

قال إسرائيل ولفنسون ، يؤرخ لقومه ويشرح خطتهم بعد هزيمة الأحزاب وبنى قريظة :

«ارتعدت فرائص يهود خيبر لما وصل إليهم ما حل بإخوانهم - بنى قريظة ، بعد بنى النضير وبنى قينقاع - وأوجسوا خيفة من نقمة المسلمين عليهم من جراء تحريضهم لقريش وغطفان مع حيى بن أخطب ، على محاربة الأنصار . وقد صرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بأن خطرا يتهدد كيان اليهود فى الحجاز ، وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء ثم يزحفوا على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية فى هذه الغزوة . ولكن بعض الزعماء عارضه فى هذا وكانوا فى هذه الأثناء يرسلون الوفود بالأموال لفداء عدد عظيم من النساء والذرارى . وقد علم الرسول بما يدور فى خلد يهود خيبر فأخذ يتهيأ لقتالهم ولكنه أجله إلى أجل قصير لأسباب سياسية ، وأخذ الأنصار يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر كمقدمات للغزوة وكان من تلك الضحايا زعيمان كبيرا النفوذ والسيطرة فى خيبر وهما سلام أبو الحقيق (ابن أبى الحقيق) واليسير بن رزام ، أما الأول فقد قتل على فراشه بواسطة خمسة من بنى الخزرج قصدوا خيبر فاحتالوا على امرأة سلام بأنهم يلتمسون الميرة ففتحت لهم الأبواب فهجموا على سلام وطعنوه بسيوفهم وهو على فراشه لا يدرى بهم .

« وكان سلام بن أبي الحقيق من أصحاب العقول الراجحة فأراد المسلمون أن يتخلصوا منه قبل أن تدور المعارك بينهم وبين اليهود فى ناحية خيبر .

«وأما الزعيم الثانى ، اليسير بن رزام ، فقد كان يجتمع ببنى غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود فى حالة دخول أهل خيبر فى حرب مع المسلمين . فبعث إليه الرسول عبد الله بن رواحة فى نفر من أصحابه فقدموا إليه بخيبر وكلموه ، ودعوه إلى مفاوضة الرسول ، فخرج معهم ، فى جمع من رجاله ، حتى إذا أبعد ستة أميال من خيبر ، ندم اليسير على مسيره – وهمّ بالرجوع – ففطن له عبد الله بن أنس . فضربه بالسيف ومال كل رجل من الأنصار على صحب اليسير من اليهود فقتله ، إلا رجلا واحدا أفلت على رجليه . . وعبد الله بن رواحة لم يأت إلى خيبر لعقد معاهدات بل لتنفيذ خطة سياسية خطيرة كان من شأنها إضعاف اليهود بقتل بعض زعمائهم . وقد اعتبر مؤرخو العرب قتل اليسير بن رزام من الأعمال السياسية الجليلة ، فقد وضعوا له بابا خاصا كأنه غزوة من الغزوات » . (١)

وكلام ولفنسون – ككل تأريخه لأسلافه – يرد بعضه على بعض ، وينقض بعضه بعضا :

بدأ فسجل ارتعاد فرائص يهود خيبر لما حل بإخوانهم بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ، ثم توهم ليهود خيبر المرتعدى الفرائص قوة خطيرة تجعل الأنصار يدبرون لقتل زعمائهم كمقدمات للغزوة !

---

(١) بنصه ، من « تاريخ اليهود فى جزيرة العرب » ١٥٧ : ١٥٩

وتحدث عن مفاوضات بين اليسير بن رزام وبين غطفان ، ليكونوا مع اليهود فى حالة دخول أهل خيبر فى حرب مع المسلمين !

دون أن يسأل نفسه : متى دخل اليهود فى حرب سافرة مع المسلمين أو غير المسلمين ؟ وما هذه النخوة الطارئة التى أحسها يهود خيبر ، وقد مضى بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع ، لم يغضب لهم أحد بالسيف ، ولا أطاقوا أن يدخلوا مع المسلمين فى قتال ، وإنما كان دأبهم دائما أن يحتموا بحصونهم حتى يزلزلهم الرعب فيستسلموا لحكم المسلمين فيهم !

ثم ما هذه القوة المرهوبة ، لزعيمين من يهود رآهما «ولفنسون» مظنة خطر فى حرب خيبر ، وإن أحد الزعيمين ليقتل فى عقر داره وهو على فراشه «لا يدرى بهم» ! والآخر يقتل فى معركة مكشوفة بسيف رجل واحد من الأنصار ، ويتكفل بأصحابه عدد مثلهم من الأنصار ، رجلا لرجل ، فلا ينجو من اليهود «إلا رجلا واحدا أفلت على رجليه» بنص عباراته ! ؟ .

ألا ما أهون وما أضعف !

* * *

إنما قتل هذان اليهوديان بشرهما :

«سلام بن أبى الحقيق» صهر كعب بن الأشرف ، لم يكفّ عن الكيد للمسلمين والتحريض عليهم ، حتى أخرسَتْه سيوف الخزرج وهو على فراشه «لا يدرى بهم» كما يقول إسرائيل !

وقُتل «اليسير بن رزام» بعد ذلك بزمن ، مواجَهة ، بسيف عبد الله ابن أنيس ، بعد أن جعل من خيبر مركزا للتآمر على الإسلام . ولم يشغل حديث مقتله ، أكثر من نصف صفحة ، من كتاب السيرة لابن هشام[1] !

والذى يقرأ كلام اسرائيل ولفنسون فى مقتلهما ، يخيل إليه أن الرجلين شغلا المسلمين فى الفترة التى تلت غزوة بنى قريظة ، تمهيدا لغزو خيبر .

والذى فى تاريخ الإسلام ، أن مقتل الرجلين تباعد ما بينهما فى فترة شُغلت بأحداث جسام :

استقبل الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد فراغه من غزوة الخندق وبنى قريظة ، زعيمين من أكبر قواد قريش ، خالد بن الوليد ، وعمرو ابن العاص ، وبايعا الرسول ، وصارا من جند الإسلام .

وبعد ستة أشهر من يوم بنى قريظة ، توجه الرسول صلى الله عليه وسلم فى «غزوة بنى لحيان» فى جمادى الأُولى من السنة السادسة للهجرة ، وعاد إلى المدينة فلم يقم بها إلا ليالى قلائل خرج بعدها فى «غزوة ذى قرد» ولها فى السيرة النبوية وكتاب المغازى حديث طويل .

وفى شعبان من السنة نفسها ، غزا بنى المصطلق ، وفيها كانت فرية الإفك التى تولّى كِبْرَها «عبد الله بن أُبى» رأس المنافقين وصديق اليهود ، وقد شغلت فرية الإفك الرسول والصحابة والمدينة كلها وقتا غير قصير وهزتها هزا حتى حسمها الله تعالى بآياته :

---

(١) السيرة : ٢٦٦/٤

«إن الذين جاءوا بالإفك عصبةٌ منكم ، لا تحسَبوه شرا لكم بل هو خيرٌ لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفكٌ مبينٌ» .

إلى قوله تعالى من سورة النور :

«ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه فى الدنيا والآخرة لمسَّكم فيما أفَضْتُم فيه عذابٌ عظيم . إذ تَلقونه بألسنتِكم وتقولون بأفواهِكم ما ليس لكم به علمٌ وتحسَبونه هينا وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم مَا يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانَك هذا بهتانٌ عظيم . يعِظُكم اللهُ أن تعودوا لمثلِه أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن تشيعَ الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرةِ واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون» .

وفى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة ، كان خروج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمرا لا يريد حربا ، حيث نزل بالحديبية ، وأرسل عثمان بن عفان إلى قريش ينبئها بمقدمه للعمرة لا لحرب ، وشاع أن قريشا قتلت عثمان بن عفان ، فكانت بيعة الرضوان على مناجزة قريش ، ثم عاد عثمان ومعه سهل بن عمرو ، بعثته قريش ليصالح الرسول «على أن يرجع عن مكة عامَه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا» على أن يعو فى عام قابل فيدخلها بأصحابه فيقيم بها ثلاثا ، بغير سلاح إلا سلاح الراكب : السيوف فى القُرب .

وتمت هدنة الحديبية ، بما أحاط بها وأعقبها من جليل الشواغل والأحداث[1] .

* * *

بعدها ، فى سنة سبع للهجرة ، كان مسير الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خيبر !

---

(1) طبقات ابن سعد : الجزء الثانى ط لندن .
وتاريخ الطبرى : جـ ٣ أحداث السنة السادسة للهجرة

يهود خيبر

ودخلها ليلا ، وكان من عادته عليه الصلاة والسلام إذا غزا قوما ، تمهل حتى يصبح !

ومضى الليل ، ويهود خيبر فى حصونهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، على مقربة منهم . . .

وكانت الحصون ساهرة !

تتهيأ للمصير المحتوم !

وأصبح الصبح ، فجعل رسول الله يتدنّى الحصونَ فتسقط بين أيدى المسلمين حصنا بعد حصن ، وكان أول حصن منها سقط « حصن نطاة » وفيه لفظ زعيم اليهود « سلام بن مشكم » آخر أنفاسه السامة . وبعده تساقطت بقية الحصون لم يبق منها غيرُ حصنى الوطيح والسلالم ، ولم يدُرْ حولهما قتال . . .

حاصرهما المسلمون بضع عشرة ليلة ، كانت كافية لأن تذل اليهود ، فبعثوا وافدهم إلى الرسول يرجونه أن يكتفى منهم بالجلاء ، وأن يحقن لهم دماءهم .

وفعل الرسول الكريم . . . (١)

اكتفى بأن يطهر خيبر منهم ، وتركهم يجلون عنها ، هائمين على وجوههم بالفلاة !

(١) تاريخ الطبرى : جـ ٣ ص ٩١ وما بعدها . أحداث السنة السابعة من الهجرة .

ويزعم سليلهم ولفنسون ، أن المسلمين تهيبوا أن يلقوا هؤلاء القوم الشجعان ، قبل أن يقتلوا زعيمهم ابن أبى الحقيق ، واليسير بن رزام!

* * *

بعد خيبر ، انتهت قصة اليهود بالحجاز إلا فلولا مبعثرة فى بعض قرى لهم أهمها فدك . ولم يكن صلى الله عليه وسلم فى حاجة إلى المسير إليهم ، فإن يهود فدك لم يكادوا يسمعون بما كان فى خيبر ، حتى بادروا فبعثوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، يضرعون إليه أن يُسيرهم ويحقن دماءهم ، ويخلوا له ما يقترح من أموالهم .

وصالحهم رسول الله «على النصف ، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»[1] .

* * *

وبقيت لقصة خيبر بقية ....

بقية تليق بيهود .

لما تم النصر للمسلمين ، أقبلت امرأة «سلام بن مشكم» نحو منازل أصحاب الرسول بادية الخضوع والاستسلام للأمر الواقع ، فسألتهم :

– أى عضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ؟

قيل لها : الذراع .

فما انقضى الليل حتى غدت فجاءت الرسولَ بشاة مشوية ، وليمة منها للقائد المنتصر .

---

(1) السيرة ٣/٣٥٢ ، وتاريخ الطبرى : ٣/٩٨

وتلطف الرسول ، فتناول مضغة من الذراع ، لاكها فلم يُسغها ولَفَظها .

وكان معه «بشر بن البراء بن معرور» قد ازدرد قطعة من الذراع التى أخذ منها الرسول ، فمات من أكلته .

وجيء بالمرأة اليهودية ، فاعترفت بأنها سمّت الشاة وأكثرت فى ذراعها السم !

ولما سألها الرسول : ما حملك على هذا ؟

أجابت : بلغتَ من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : إن كان مَلِكا استرحتُ منه ، وإن كان نبيا فسيُخبر !

وتجاوز عنها الرسول . (١)

* * *

ولكن المسلمين لم ينسوا فعلتها . .

وقد سهروا على الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين مقامه بخيبر ، يحرسونه من كيد يهود ، والله تعالى حارسه .

وفى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم لما افتتح حصن «ابن أبى الحقيق» أُتِىَ بصفية بنت حيي بن أخطب زوج كنانة بن الربيع ، وبأُخرى معها من أهلها . وكان «بلال» هو الذى جاء بهما ، فمر فى طريقه إلى الرسول على قتلى من يهود ، فلما رأتهم المرأة التى مع صفية ، صاحت تنوح عليهم ، وصكت وجهها وحَثَت التراب على رأسها . فلما رآها الرسول أشاح بوجهه الكريم عنها ، وقال لبلال صاحبه : أَنُزعت منك الرحمةُ يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ (٢)

وأمر بصفية فحيزت خلفه وألقى عليها رداءه . فعرف المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفاها لنفسه .

(١،٢) تاريخ الطبرى : ٩٥/٣

وانتظر الرسول حتى هدأ روع صفية ، ثم دخل عليها فى قبة له ، وبات «أبو أيوب الأنصارى» ساهرا متوشحا سيفه ، يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطيف بالقبة ، حتى أصبح الرسول فلما رأى مكانه سأله : مالك يا أبا أيوب ؟

أجاب :

– يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة .

فيقال إن الرسول دعا لأبى أيوب :

«اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى»[1] .

* * *

وعاد المسلمون إلى المدينة ، بعد أن طهروا خيبر من يهود ، بفىء خيبر ، والنصف من ثمار فدك ، صلحا بغير قتال .

وحسان بن ثابت فى مطلع الركب الظافر ، يشدو :

بئسما قاتلتْ خيابرُ عما ... جمّعوا من مزارع ونخيل

كرهوا الموتَ فاستبيح حِماهمْ ... وأقروا ، فعلَ اللئيم الذليلِ

أمن الموت يهربون فإن المو ... ت ، موت الهزال ، غيرُ جميل

وكعب بن مالك بن الأنصارى ، يرجّع هتاف النصر :

ونحن وردنا خيبرا وفروضه ... بكلّ فتى عارى الأشاجعِ مذودِ

جوادٍ لدى الغايات ، لا واهن القوى ... جرىء على الأعداء فى كل مشهد

يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة ... من الله يرجوها ، وفوزا بأحمد

يذود ويحمى عن ذمار محمد ... ويدفع عنه باللسان وباليد

وينصره من كل أمر يريبه ... يجود بنفس دون نفس محمد

* * *

---

(1) السيرة : ٣٥٥/٣

الجلاء

«فبظلمٍ من الذين هادوا حرّمنا عليهم
طيباتٍ أحلت لهم ، وبصدّهم عن سبيلِ الله
كثيرا . وأخذِهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلِهم
أموالَ الناسِ بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم
عذابا أليما » .

(قرآن كريم : سورة النساء)

لم يبق من اليهود فى جزيرة العرب بعد « خيبر » غير فلول مريضة ذليلة ، شريدة ممزقة ، تلعق هوانها وتحاول أن تلتمس لها موضعا فى الفلاة .

«بعد أن قضوا عصورا طويلة وهم يتمتعون هناك ويتفيئون ظلال البلاد الحجازية ، قد قضت عليهم غزوة خيبر قضاء نهائيا ، فأخذت حالهم تتدهور شيئا فشيئا حتى وصلوا إلى الدرك الأسفل من الفقر والفاقة ، وقد فقدوا ما كان لهم من تأثير ونفوذ عند العرب فى الجزيرة العربية »(١) .

تأثير الغاصب الشرير . . .

ونفوذ اللص المجرم . . .

* * *

حتى كان أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » هو الذى طهر جزيرة العرب من كل أثر لهم .

أجلى بقايا فلولهم فى فدك ووادى القرى وتيماء . (٢)

---

(١) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى جزيرة العرب : ١٧٣

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ١٢٧ ط اوربا وابن سعد : الطبقات الكبرى ٨٢/٢ ط أوربا

لم يظلمهم أمير المؤمنين ، ولا ظلمهم سواه ، وإنما كانوا هم الذين ظلموا أنفسهم :

«فبِظُلمٍ من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّت لهم ، وبصدِّهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذِهم الربا وقد نُهوا عنه وأكلِهم أموالَ الناسِ بالباطل» .

* * *

وانتهت تلك الجولة الإسلامية من جولات المعركة التاريخية ضد أعداءِ البشر .

وأُسدِل الستار على «اليهودى التائه» وقد عاد إلى ضلاله القديم ، يضرب فى التيه من بادية الشام .

تلفظه الأرض حيث أقام وأنى اتجه . وتطارده اللعنة أينما حط أو سار .

ورصيد جرائمه الوحشية يتضخم فيؤرق ضمير الإنسانية .

وطبيعة اليهودى التائه تزداد فى سلالته تأصلا ورسوخا ، فلا تدعهم يستقرون فى بلد إلا على نيةِ امتصاص دمائه وانتهاب خيراته .

عن يقينٍ بأن الزمن مهما يطل بهم فى بقعة من الأرض ، فلن تلبث أن تضج منهم وتأبى مساسهم فتطردهم إلى ما وراءِ حدودها . .

ليخبطوا فى التيه ، مطارَدين بلعنة اليهودى التائه ، وعِجله الذهبى المعبود :

«قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعدا لن تُخلَفَه ، وانظر إلى إلهك الذى ظلْتَ عليه عاكفا لنحرقنّه ثم لننسفنّه فى اليم نسفا» . صدق الله العظيم

(٣)

في الغرب الأوروبي

« وضُرِبتْ عليهم الذلة والمسكنة
وباءُوا بغضب من الله » .

(سورة البقرة)

أسدل الستار على ذلك الفصل من قصة يهود فى بلاد الحجاز . .

ريثما تنتشر فلولهم المريضة الممزقة فى أنحاء أُخرى من الأَرض يبذرون فيها الشر ، فتبدأُ جولات جديدة فى المعركة الإِنسانية ضد أَعداء البشر ، على امتداد الزمان والمكان . .

* * *

انتقل الوباءُ من شرقنا العربى إلى الساحة الأُوروبية ، مع تسرب الجرثومة الخبيثة إلى هناك .

وتمثلت الجولة باديء الأَمر فى محاولات جزئية شتّى للقضاء على عصاباتهم بجريمة استنزاف دماءِ الأَطفال أَحياء فى طقوس عيد الفصح . ويقدم لنا سجل جرائمهم الذى نشره المؤرخ الانجليزى «أَرنولد ليز» عام ١٩٣٨ ، صحفا سودا بشعة يضج منها ضمير البشرية ، ويشهد بأَن الجرثومة اللعينة انتشرت مع الهواءِ فى أَنحاءِ أَوروبا من القرن العاشر الميلادى ، فلم تكد تدع منطقة هناك دون أَن تلوثها وتترك بصمتها المنكرة البشعة على أَرضها .

وأَنقل من هذا السجل التاريخى ، بعض أَمثلة شاهدة على مدى انتشار الوباء ، والمحاولات التى بذلت لمكافحته : (١)

---

(١) بايجاز ، من كتاب « خطر اليهودية العالمية » نقلا عن كتاب :
Arnold Ieese : Jewish Ritual Murder: London. 1938

في فرنسا :

حيث حوكمت عصابات منهم فى سنوات ١١٧١، ١١٩٢، ١٢٤٧، ١٢٨٨م بجرائم استنزاف دماء الأطفال أحياء ، وقد سجلت (دائرة المعارف اليهودية) فى الجزءين الثالث والثانى عشر ، عددا من هذه المحاكمات اعترف المجرمون فيها بجرائمهم البشعة ، وصدرت عليهم الأحكام بالحرق وبالإعدام .

وفى بريطانيا :

حيث تتابعت جرائمهم الوحشية ولوثت الأرض بدماء ضحاياهم ، وفشلت فى ردعهم الأحكامُ الصارمة التى صدرت على عصابات منهم فأصدر «الملك إدوارد الأول» قراره التاريخى سنة ١٢٩٠م بطرد اليهود من بريطانيا ، حسما للشر والوباء .

وفى أسبانيا :

تتابعت جرائمهم الوحشية ، حتى أصدر الملك والملكة قرارا عام ١٤٩٢ بطرد اليهود نهائيا من اسبانيا . وقبل ذلك القرار بعامين ، حوكمت العصابة اليهودية بجريمة ذبح طفل مسيحى للحاجة إلى دمه فى عيد الفصح ، وأعدم منهم ثمانية .

والذى حدث فى فرنسا وانجلترا وإسبانيا ، حدث مثله وأبشع منه ، فى روسيا ، وبولندا ، وسويسرا ، وإيطاليا ، والنمسا ، واليونان ، وهنغاريا.. على ما هو مسجل بالوثائق التاريخية .

على امتداد الزمن ، ما بين القرن الحادى عشر إلى القرن العشرين ، حين تقدم «هتلر» إلى ميدان المعركة ، يريد أن يريح البشرية من ذلك الداء الخبيث ، فكانت الجولة التى شهدها عصرنا ، وأطلق عليها أولياء اليهود «جريمة اضطهاد اليهود» .

بعد أن بشمت التربة الألمانية بما أريق عليها من دماء ضحاياهم ، وبعد أن أنفذوا مخالبهم المسمومة فى كيان (الرايخ الألمانى) ، وتسلطوا على اقتصاده ومصيره ، واستطاعوا بنفوذهم السياسى الذى هو أثر حتمى لسيطرتهم على موارد ألمانيا الاقتصادية ، أن ينكبوها بالهزيمة فى حربين عالميتين كانت المنتصرة فيهما !

ومن شاء أن يقرأ قصتهم فى ألمانيا ، بقلم مؤرخ محايد ، فأمامه كتاب الأستاذ أرنولد ليز ، الذى نشره فى لندن عام ١٩٣٨ !

وفى سجل جرائمهم البشعة ، فى استنزاف الدم البشرى بألمانيا :

خمسة أطفال عثر عليهم مذبوحين على الطريقة اليهودية ، بمدينة فولدا عام ١٢٣٥ .

طفلة ، فى السابعة من عمرها ، استنزفوا دمها وألقوا جثتها فى النهر ، بمدينة بادن عام ١٢٦١ .

طفل مسيحى ، عذبه اليهود فى عيدهم وعلقوه من رجليه واستنزفوا دمه لآخر قطرة بمدينة أوبرفسيل سنة ١٢٨٦ ، وقد اتخذت المدينة من يوم

صلبه (١٩ابريل) ذكرى سنوية لتلك الجريمة الوحشية ، وجعلت من الطفل الضحية قديسا !

وطفل آخر ، اشترك واحد وأربعون يهوديا فى الاحتفال باستنزاف دمه ، فى عيد الفصح من عام ١٥١٠ م ، بمدينة براند نبورج .

وشهيد من ضحاياهم ، فى الثالثة من عمره ، اختطفوه وهو يسير مع أمه فى مدينة ميتز ، سنة ١٦٧٠ ، واعترف يهودى بذبحه واستنزاف دمه ، فحكم برلمان المدينة على المجرم بالإعدام حرقا .

وفى السنوات السابقة على حكم هتلر ، كان سجل الضحايا من الألمان ، قد أضيف إليه فتى عشر عليه بمدينة جلاد بك سنة ١٩٢٨ مستنزف الدم ، وغلام فى مدينة ماناو ، ذبح فى عيد البوريم اليهودى سنة ١٩٢٩ ، وفتاة مسيحية ، مزقت جثتها بعد امتصاص دمها ، فى مدينة بادنبورج سنة ١٩٣٢ !

وحين أوشكت تلك الجولة أن تصل بالمعركة الألمانية التاريخية إلى نهاية حاسمة ، تصدى الاستعمار الجديد فنقلها إلى صميم الشرق العربى .

وفى وهمه أنها معركة جديدة تغل حركتنا الحرة وتصفى حساب الاستعمار مع ثورات التحرير التى أجلته عن المنطقة ومضت تدك قواعد نفوذه وتقاوم تسلله !

وفى حساب التاريخ أنها جولة فى معركة إنسانية طال مداها وتضخم رصيدها من الضحايا والشهداء .

تأخذ دورها هذه المرة ، على الأرض الطيبة التى شهدت الجولة الفاصلة فى معركة الحرية والحضارة ، ضد الصليبيين والتتار . . .

* * *

والتاريخ لا يستطيع أن يجد تفسيرًا لتتابع هذه الجولات وامتداد أبعادها ، إلا أن تكون معركة واحدة لبنى الإنسان ، ضد أعداء البشر . . .

ولا يملك أن يقدم تعليلا ، إلا أن الشعوب والأمم قد تواصت فيما بينها على مواصلة النضال لإنقاذ البشرية من اللعنة التى ابتليت بها ، منذ ظهرت اليهودية على الأرض ، تبذر الشر حيثما وطئت قدماها ، وتنفث السم حيثما تنفست !

والشعوب تتلقى تبعة هذا الجهاد ، دون أن تسجله فى عهد مدون أو وثيقة مكتوبة . . .

لأنه من أمانة إنسانيتها التى تتوارثها تلقائيا وتتحملها جبريا . .

تحقيقا لوجودها الإنسانى .

وحماية لما ناضلت طويلا من أجله ، من حق وخير وجمال . .

ولولا أنها تعى أن اليهودية لعنة وشر وقبح ، لانحصرت المعركة فى زمن بعينه أو منطقة بذاتها .

ولما تتابعت جولاتها من عصر ما قبل التاريخ إلى عصر الفضاء ، واتسع ميدانها على مسار ذلك الزمن الطويل من الشرق الآسيوى الإفريقى إلى ضفاف التايمز ومروج اسبانيا ووادى الراين . .

الجــزء الثــانى

الأبعادُ الفِكريّةِ لِلمعْركة

* – الدين الموسوى واليهودية .

* – الصهيونية وشبهة التعصب العنصرى .

* – مثقفو الغرب ، و (عقدة الخواجه) فينا .

لم تكن الجولة الألمانية إذن، سوى فصل من قصة طويلة بدأت قبل هتلر بقرون لا تحصى، ووعاها التاريخ على مسار الزمن من قديم موغل فى القدم إلى عصرنا الحديث.

ففيم التركيز إذن على حكاية الاضطهاد النازى تؤلف فيه القصص والروايات وتدبج فيه البحوث والمقالات؟

ولمصلحة مَن يُلقى بكل تلك الفصول من قصة الإنسانية وأعداء البشر، فى غيابة التجاهل ومتاهة النسيان؟

لعلنا نشفق من تهمة التعصب الدينى أو التفرقة العنصرية.

وذلك خطأ آخر فادح، من أخطاء فهمنا لقضيتنا:

* * *

حين نتحدث عن محنة البشر بالشر اليهودى، يجب أن يكون واضحا تماما أننا نفرق بين الدين الموسوى وبين العصابة الإسرائيلية الصهيونية.

وأحسب أننا فى غير حاجة إلى تأكيد احترامنا للدين الموسوى، ونحن ندين بالإسلام الذى يفرض علينا الإقرارَ بنبوة موسى عليه السلام، ويُلزمنا دينا وعقيدة، أن نصدق برسالته ونؤمن بأن نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، بعث بالحق مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وخاتما للأنبياء الذين سبقوه برسالات ربهم.

ونتلو من كتاب الإسلام هذه الآيات المحكمات:

«نزَّل عليك الكتابَ بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان..».

(آل عمران: ٢، ٣)

«والذى أوحينا إليك من الكتابِ هو الحق مصدقا لما بين يديه ، إن الله بعباده لخبير بصير» .

(فاطر : ٣١)

«قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوبَ والأَسباط وما أُوتى موسى وعيسى وما أُوتى النبيون ن ربهم لا نفرق بين أَحد منهم ونحن له مسلمون» .

(البقرة : ١٣٦)

«آمَنَ الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمَنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» . (البقرة : ٢٨٥)

«لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبَرُّوهم وتُقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تَوَلوهم ، ومَن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون» .

(الممتحنة : ٨ ، ٩)

لا مجال إذن للخلط بين الموسوية من حيث هى دين تفرض علينا عقيدتنا احترامَه ، وبين اليهودية من حيث هى خلقية وسلوك . . .

فبنو إسرائيل أسبق فى الوجود التاريخى من الديانة الموسوية . ومحنة البشرية بهم أقدم من موسى عليه السلام بقرون ذات عدد . والذين اتبعوه منهم لم يلبث أكثرهم أن كفروا بربه بمجرد أن التقطوا أنفاسهم من وطأة فرعون :

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

(الصف : ٥)

وأسفار التوراة قد حرفوها من بعده وزوروها كى يسخروها لخدمة صنمهم الذهبي المعبود ، وتبرير جرائمهم فى القتل والغدر والسم وأكل الربا وامتصاص الدماء :

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون »

(آل عمران : ١٧٨)

«مَثَلُ الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يَحمِلوها كمثَلِ الحمارِ يحمل أسفارا ، بئس مثلُ القوم الذين كذّبوا بآياتِ الله ، واللهُ لا يَهدى القومَ الظالمين »

(الجمعة : ٥)

كلا . . . لا مجال للخلط بين الديانة الموسوية وبين العصابة الإسرائيلية الكافرة التى حاقت بها اللعنة من قديم على لسان الأنبياء ، قبل أن ينكب بهم العرب والإسلام بقرون وأدهار .

فماذا عن تهمة العنصرية التى نشفق منها ونخشى أن يحاسبنا مثقفو الغرب عليها أو يسيئوا الظن بنا ؟

الحق أن مفهوم العنصرية قد شابه زيف فادح ضلت به مقاييسها واختلت موازينها ، حين أقحمت مقاومة الشر الإسرائيلى فى مجال التفرقة العنصرية التى تعنى فيما أفهم ، التفرقة بين البشر بسبب اللون أو الدين أو الملة أو الطبقة أو الإقليم . وما بنا حاجة إلى تأكيد رفضنا للعنصرية ، والأصل فى شريعتنا أن الناس لا يتفاضلون بجنس أو لون أو طبقة أو أى عَرض من الأعراض الطارئة ، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح .

وإسرائيل هى أصل الداء العنصرى كما هى أصل لكل شر . ومن قديم زعمت لعنصرها أفضلية وامتيازا وادعت فى جرأة وقحة أنها شعب الله المختار . على حين نتلو من كتاب ديننا :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

(الحجرات : ١٣)

ونحفظ من حديث نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .

فلسنا فى حاجة إلى أن نتلقى عن الغرب الحديث مبادئ الدعوة إلى رفض التفرقة العنصرية . ولا أن نستعير منه مفاهيم طارئة تُحِلُّ للغربيين اضطهادَ الملونين وتحرم علينا أن نقاوم الشر الإسرائيلى لا ننظر فيه إلى لون أو ملة ، وإنما نحمى وجودنا من داء وبيل حاولت البشرية على امتداد الزمان والمكان أن تحد من ضراوته .

وحين تتداعى الإنسانية برفض العنصرية فيجب أن يرسخ فى أذهاننا تماما أن إسرائيل قد خرجت عن هذه الإنسانية بما تأصل فيها من خبث وشر ، وبما ناءت به من لعنة البشر على اختلاف العصور والملل والأجناس .

وقبل أن يقذف «بلفور» بوعده المشئوم ، كان اليهود يعيشون فى وطننا الكبير ويستنزفون خيراته ويسيطرون على المراكز الحيوية من اقتصاده ، مستغلين سماحتنا التى جعلتنا نصبر على أذاهم بوهم الحرج من التعصب الدينى أو العنصرى . وكانت قطعان من ذئابهم تمرح فى وديان النيل والرافدين والأردن ، وفى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب العربى ، مستظلة بهذه السماحة فينا .

بل قبل أن تظهر فى أفق العصر الدعوةُ إلى مقاومة على التعصب الدينى والتمايز البشرى ، بآلاف السنين ، كانت البشرية تئن من شر عصابات يهود وتكافح للخلاص منها ، دون أن يُحمّل شيء من هذا على تعصبٍ دينى أو عنصرى .

* * *

وفى يقينى أن إقحام دعوى العنصرية والتعصب على قضيتنا ، مما دسّه اليهود وأولياؤهم على فكرنا المعاصر ، تزييفا للموقف وتعمية للرؤية . وإلا فكيف يصح عقلا أن يتواطأ الفراعنة والبابليون والرومان فى التاريخ القديم ، على التداعى بعصبية دينية وقد كانت أديانهم متفرقة شتى ؟!

وكيف يجوز فى أى منطق ، أن يلتقى الفرنسيون والإنجليز والروس والأسبان فى العصر الوسيط ، على عنصرية مشتركة وإنهم لمن أجناس مختلفة وعناصر متباينة ؟

. وأى ملحظ من وحدة العنصر أو وحدة الدين ، يجمع بين عداء ألمانيا النازية لليهود ، وبين رفضنا للوجود الإسرائيلى على أرضنا فى التاريخ المعاصر؟

أسئلة لم يتح لأحد أن يثيرها فى دعوى اتهامنا بالتعصب والعنصرية ، لينكشف زيفها وتنجاب ظلالها عن الأفق الفكرى للأمة العربية التى تخوض اليوم معركتها ضد إسرائيل .

* * *

ونحن الكتاب والمفكرين ، ما نكاد نتجه لكى نأخذ مكاننا حيث يجب أن نكون فى الموقع الفكرى للمعركة ، حتى تأخذنا صيحات من هنا ومن هناك ، توصينا بالتحفظ والحذر فيما نكتب أو نقول . .

وتداعى نفر من كُتّابنا بمصر ، بأن نبرأ من تهمة العداء لليهود ، فى بيانٍ نوجهه إلى مثقفى الغرب ، باللغتين الانجليزية والفرنسية . كى يحسنوا الظن بنا ويمنحونا تأييدهم لقضيتنا ، عن اقتناع بأننا متسامحون مسالمون متحضرون !

وأخشى ما أخشاه أن تكون هناك بقية ما تزال فينا من (عقدة الخواجة) التى سهر الاستعمار الغربى على ترسيخها فينا بما ألح على عقولنا ووجداننا من أن وجودنا العصرى رهن بشهادة غربية تعترف بانتمائنا إلى الشعوب المتحضرة !

كأننا فى حاجة إلى تفضلهم بالاعتراف بنا بين الشعوب المتحضرة !

وكأن عداء إسرائيل وصمة تلطخ سمعتنا لدى الغرب وتؤرق بالنا ، حين ينبغى ألا نُشغل بغير النضال عن وجودنا ومصيرنا !

لقد طال على كثير منا المدى وهم ينظرون إلى مثقفى الغرب نظرة الأدنى إلى الأعلى ، أو نظرة الأقزام إلى العمالقة . بل أكاد أقول إن هؤلاء الغربيين قُدموا إلى فكرنا المعاصر فى هالة من أضواء التقديس تذكرنا بعصر عبادة الأبطال ! ! وقد بلوناهم من قرب فإذا هم بشر مثلنا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، ويجوز عليهم ما يجوز على البشر من غفلة

وقصر نظر وضلال هوى ! وليس الذى قاله متعصبو المستشرقين فى العرب والإسلام والشرق عنا ببعيد ، وإنه ليدمغ جمهرتهم – وهم من صفوة مثقفى الغرب – بما لم يستطيعوا البرء منه من ضيق الأفق وحقد التعصب وزيغ الهوى .

فإن كان مثقفو الغرب بحيث يجهلون شرعية نضالنا ضد الشر الإسرائيلى الذى ضجت منه الإنسانية على مسار الزمن ، فما بنا حاجة إلى تأييدهم لقضيتنا ويجب أن نسقطهم من حسابنا فيما نواجه من أعباء المعركة .

وإن كانوا بحيث يجهلون ما لا يجوز لأى مثقف أن يجهله مما شهد به الواقع التاريخى من أن منا شئ الحضارة الأولى كانت فى شرقنا الآسيوى الإفريقى ، وأن أمتنا الإسلامية كان لها الدور القيادى للحضارة فى العصر الوسيط ، فكيف جاز أن نسمح لهم أو لسواهم أن يضعوا أصالتنا فى التحضر وعراقتنا فى المدنية موضع النظر والامتحان أو الشك والارتياب ، ونحن ننتمى إلى أمة قادت شعوبها خطوات البشرية من مجاهل بدائيتها ، وأضاءت لها ظلمات عصورها الوسطى ؟ ! .

* * *

وسخرية بعقولنا أن يُخشى علينا اتهام بالتعصب الذى هو من سمات عدم التحضر ، وأن يُطلب إلينا أن نحسب حسابا لرأى مثقفى الغرب فينا ، وإن قومهم ليمارسون أبشع جرائم الاضطهاد الدينى والمذهبى والتفرقة العنصرية والقرصنة الاستعمارية .

هنا فى قارتنا الافريقية ، حيث يتسلط البيض الدخلاء على أرض سرقوها من أبنائها الشرعيين وأهدروا إنسانيتهم لغير ذنب إلا أنهم إفريقيون لوحت بشرتهم شمس بلادهم وتركت عليها صبغتها السمراء التى يعدها القراصنة البيض بصمة خطيئة وسمة هوان !

وهناك فى أقصى شرقنا الآسيوى ، حيث تتسلط أمريكا المحدثة على إخوتنا فى فيتنام بحرب تدمير وإبادة ، لمجرد أنهم يأبون أن يتخلوا عن حريتهم ليدوروا فى فلك الاستعمار الأمريكى مصفدين بالأغلال . . .

وهنالك فى الغرب الأمريكى ، حيث يُمتحن إخوتنا الملونون بأبشع أنواع الإهانة والنبذ والاضطهاد ، لمجرد أن لونهم لا يستريح له مزاج البيض من شذاذ الآفاق الذين طرأوا على الدنيا الجديدة ، أخلاطا من أجناس ودماء .

على مرأى ومسمع من مثقفى الغرب الذين نتعلق بشهادتهم لنا وموقفهم من قضيتنا !

* * *

وأنا بعدُ لا أقدم هذا الكتاب إلى القراء الغربيين ، فلهم سواىَ مَن يكتب لهم ويحرص على حسن رأيهم فيه .

وإنما أقدم كتابى إلى أبناء وطنى العربى وأمتى الإسلامية فهم وحدهم الذين أرجوهم لتطهير حمانا من جرثومة الوباء وحماية شرفنا من عار الاحتلال الصهيونى .

فلتكن هذه الكلمات وقودا لغضبهم على الوجود الصهيونى فى أرض الرسالات ، ونضالا بالقلم فى هذه الفترة الحرجة من تاريخنا :

« ليستيقنَ الذين أُوتوا الكتابَ ويزدادَ الذين آمنوا إيمانا ولا يرتابَ الذين أُوتوا الكتابَ والمؤمنون وليقولَ الذين في قلوبهم مرضٌ والكافرون ماذا أراد اللهُ بهذا مَثَلا ، كذلك يُضل اللهُ مَن يشاء ويهدى مَن يشاء . وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلا هو ، وما هى إلا ذكرى للبشر * كلا والقمر * والليلِ إذ أدبر والصبح إذا أسفر * إنها لإحدى الكُبَر * نذيرًا للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » .

(صدق الله العظيم)

الفهرست

صفحة

الجزء الأول

الأبعاد التاريخية للمعركة

الجزء الثاني

الأبعاد الفكرية للمعركة

استدراك

ما وقع فى الكتاب من أخطاء وتصحيفات ، يمكن أن نتركه لفطنة القارئ . ولا بأس مع ذلك من استدراك بعضها فيما يلى :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	٨	وأن يمحق الحق الباطل	وأن يمحق الباطل الحق
٣٤	١١	ينزحوا	يحطُّوا
٤١	الأخير	العربِ الأَصلاءُ	العربِ الأُصلاء
٥٢	٤	فبدأ به تاريخ جديد لها	فبدأبزمزم تاريخ جديد لمكة
٥٤	١٢	إلا أن يستغلوا	إلا أن يستغلا
٥٩	٣	وأُرهف اليهود	وأرهف اليهود
٦٦	٣	تبعه نبأً آخر	تبعه نبأٌ آخر
٦٧	٦	عبادة بن الصامت	سُويد بن الصامت
٨٦	١٣	أن يَمَنّوا ... بتفتح	أن يمنوا ... تفتُّحَ
٨٨	١	لم يأثم امرو	لم يأثم امرؤ
٩٧	٨	والمكفر	والكفر
١١٧	٧	وتجترى	وتجترئ
١٢٦	١٢	من الأنصار	من الصحابة
١٣٠	٣	يستعينهم فى	يستعينهم
١٤٣	١٤	ــ لم أظنك	ــ لمَ ؟ أظنك
١٤٤	٦	بنى قريظة فيها	نال بنى قريظة فيها
١٥٥	قبل الأخير	على أن يعو	على أن يعود
١٥٥	الأخير	السيوف فى القُرب	السيوف فى القُرُب ــ جمع قراب ــ
١٥٩	٣	فمات من أكلته	فمات «بشر» من أكلته
١٦٥	١	أسدل الستار	أُسدِل الستار